جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة بالمنوفية

مجتمع مكة والمدينة قبل القرآن وبعده

الدكتورة

إيناس جلال محمود القصاص

مدرس بكلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر بالقاهرة

مجتمع مكة والمدينة قبل القرآن وبعده

إيناس جلال محمود القصاص
كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر بالقاهرة.
البريد الإلكتروني: Enaselasas. 2057@azhar.edu.eg

الملخص:

تحاول الدراسة المساهمة في "دفع الشبهات ونقد الدراسات الحداثية والاستشراقية حول القرآن الكريم وعلومه". تحديدًا المساهمة في نقد دعوى أن البعثة المحمدية نتاج البيئة التي ظهرت فيها (مكة والمدينة). وذلك من خلال بيان التغيير الذي حدث في مجتمع مكة والمدينة بعد نزول القرآن الكريم. بداية من شخص الرسول (ﷺ) الذي أعده ربه، (ﷻ) و(ﷻ)، لا من حوله من البشر، وكونه (ﷺ) لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، ومرورًا بقضايا القرآن الكريم التي كانت: جديدة على المجتمع، مواجهةً له، تصحح ما حرّفه العصاة، ولم تكن اقتباسًا من الدائر في أحاديث الناس، وانتهاءً بحالة التغير الجذري التي حدثت في أماكن عديدة تختلف عن بعضها في: طبيعة المكان، والزمان، وأحوال الناس، فمكة، والمدينة، واليمن، والعراق، والشام، وفارس، والرومان، وأفريقيا، والسودان، ولأزمنة مديدة.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الرسالة، صبغة الله، مكة، المدينة، الاستشراق، التنصير، البيئة، المجتمع.

Society of Mecca and Medina before and after the Qur'an

Enas Jalal Mahmoud Al-Qassas

Faculty of Islamic Studies, Al-Azhar University, Cairo.

Email: Enaselasas. 2057**@azhar.edu.eg**

The study attempts to contribute to "dispelling suspicions and criticizing modernist and oriental studies about the Holy Qur'an and its sciences." Specifically, contributing to the criticism of the claim that the Muhammadan mission is a product of the environment in which it emerged (Mecca and Medina). And that is through explaining the change that occurred in the society of Makkah and Madinah after the revelation of the Noble Qur'an. Beginning with the person of the Messenger, may God's prayers and peace be upon him, who was prepared by his Lord, Glory be to Him, Glory be to Him, Glory be to Him, not the people around him, and the fact that he, may God's prayers and peace be upon him, did not know what the Book or faith was. And passing through the issues of the Holy Qur'an that were: new to society, Confronting him, correcting what the sinners distorted, and it was not a quotation from what is circulating in people's conversations. And ending with the state of radical change that occurred in many places that differ from each other in: the nature of the place, time, and the conditions of the people, for Mecca, Medina, Yemen, Iraq, the Levant, Persia, the Romans, Africa, Sudan, and for long times.

Keywords: The Holy Qur'an, the Message, the dye of God, Mecca, Medina, Orientalism, Christianization, environment, Society.

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، ومن أحبه واتبع هديه، **وبعد**،،،

حاول المستشرقون والمتأثرون بخطابهم تقديم تفسير (قراءة) للوحي، كتابًا وسنةً. وباستقراء العديد من أطروحاتهم يمكننا وضع إطار نظري يساعد في فهم شبهاتهم التي حاولوا بثها من خلال تفسيرهم للبعثة المحمدية (الوحي كتابًا وسنة). يتكون (هذا الإطار النظري) من **ثلاثة** مقولات رئيسية، **الأولى:** القول "بحتمية تأثير البيئة"، وهي الفكرة الرئيسية عندهم، ومن خلال هذه المقولة يزعمون أن "المجتمع مُنْتِج ثقافي واجتماعي" أو أن الوحي نتاج بيئته (مكة والمدينة)؛ **والثانية:** القول بأن البعثة المحمدية ثمرة للصفات الشخصية الفذة (أو العوامل الوراثية) التي تحلى بها رسول الله (ﷺ)، كالعبقرية، وحسن التدبير (التخطيط الاستراتيجي)، **والثالثة:** القول بالتطور المعرفي. والقائلون بالتطور المعرفي فريقان: فريق يقول بأن البعثة المحمدية (الوحي كله: أخبار وتشريعات) كانت حسب الزمان والمكان الذي ظهر فيه، وعلى المؤمنين بما أنزل الله على محمد (ﷺ) أن يطوروا خطابهم بما يناسب زمانهم ومكانهم (ما يقال له: ارتباط النص بالزمان والمكان، أو: تاريخية النص)، وفريق يقول: بأن البعثة المحمدية تطورت فعليًا باختلاف الزمان والمكان فكانت نسخًا متعددة: إسلام الرسول (ﷺ) وإسلام الراشدين (رضي الله عنهم)، وإسلام الأمويين،،، وهكذا. وإن أنسب المقولات للرد على هؤلاء، هي مقولة "فجائية الدعوة"، ﴿ **قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾** ﴾[1].

(١) سورة يونس: آية ١٦.

وقد يسر الله لي معالجة مقولات المستشرقين سالفة الذكر، والرد عليهم من خلال "فجائية الدعوة" في ثلاثة أبحاث، نُشرت في مجلات علمية محكمة تتبع جامعة الأزهر الشريف، **وأحاول في هذا البحث معالجة ذات القضية (دعوى أن الوحي نتاج بيئته) من منظور عملي تطبيقي، وذلك من خلال أحد موضوعات القرآن الكريم، وهو بيان حالة التغير التي حدثت في مجتمع مكة والمدينة بعد نزول الوحي على رسول الله** (ﷺ)، لنجيب على سؤال افتراضي، هذا نصه: **هل كان القرآن الكريم مؤسسًا لواقع جديد أم كان نتاج الواقع الذي ظهر فيه؟!**

وإن إثارة هذا السؤال من شأنه أن يلقي الضوء على المنطلقات الأساسية لشبهات المستشرقين والمتأثرين بهم من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإجابة من خلال بيان حجم، ونوع، التغيير الذي حدث في البيئة التي نزل فيها القرآن الكريم (مكة والمدينة) بعد نزوله، سواءً في شخص النبي (ﷺ) وصحابته (رضي الله عنهم)، أم في مجتمع مكة الذي تحول من الوثنية إلى التوحيد، ومجتمع المدينة المنورة الذي تحول من الوثنية والعداء بين أبناء العمومة إلى حد الاقتتال وسيطرة اليهود على المال والثمار إلى الألفة والأخوة ونصرة الدين. وكذلك بيان أن عوامل التغيير التي جاء بها الإسلام صلحت لإحداث التغيير في بيئات متعددة تختلف جزئيًا أو كليًا عن مكة والمدينة. بمعنى أن العقيدة والشريعة لم تكن مرتبطة بمكة والمدينة فقط، فقد صلح بها عامة بلاد فارس وكثير من بلاد الرومان مع اختلاف مكانهم وزمانهم، ولقرونٍ طوال، بمعنى أنه لم يكن حدثًا عابرًا في قرية أو قريتين.

أهداف الدراسة:

أحاول من خلال هذه الدراسة الوصول لعددٍ من الأهداف، من أهمها:

١) المساهمة في تحقيق أهداف المؤتمر والمتمثلة في "دفع الشبهات ونقد الدراسات الحداثية والاستشراقية حول القرآن الكريم وعلومه".

٢) مناقشة آراء المعاصرين ممن أنكروا الوحي (القرآن الكريم والسنة) أو أعطوه تفسيرات أرضية حاولوا من خلال هذه التفسيرات نفي صفة التنزيه عنه والتقليل من أثره.

٣) بيان أن كل منظومة عقدية تستطيع تشكيل الواقع من جديد إن وجدت من يؤمن بها ويدعو إليها ويأخذ بأسباب التمكين لها.

٤) كشف حال من يتكلم بالشبهات عن القرآن الكريم، والدين عمومًا، وكيف أنها حالة من تعمد الكذب وتلبيس الحق بالباطل، وليست، أبدًا، حالة من البحث عن الحقيقة.

أهمية البحث:

تحاول الدراسة المساهمة في الجهد البحثي الذي يستهدف رد الشبهات التي تثار حول القرآن الكريم من المستشرقين، و"المبشرين"، والمتأثرين بهم من المسلمين، حول القرآن الكريم، وذلك من خلال:

١) المساهمة في حقل علوم القرآن الكريم بتناول قضايا استجدت في واقعنا المشاهد، تتعلق بثبوتية الوحي المنزل على رسول (ﷺ)، وبيان أثره في الناس.

٢) المساهمة في حقل بحثي جديد، ظهر مع النوازل التي حلت بالأمة الإسلامية بعد تطور وسائل التواصل الاجتماعي وهو التصدي لما انتشر من شبهات "المبشرين" والمستشرقين والمتأثرين بهم من المسلمين.

٣) بيان أن عوامل التغيير لا ترتبط بالزمان ولا بالمكان، وقد أصلح الله بما أنزل على محمد (ﷺ) من الكتاب والحكمة، أماكن وأزمنة مختلفة.

٤) بيان أن المنظومات العقدية (الفكرية) إن وجدت الأسباب اللازمة تمكنت من إحداث تغيير جذري في الواقع، وهذا ما حدث ببعثة محمدٍ (ﷺ) وحدث أيضًا ضده في الواقع المعاش.

منهجية البحث:

اتبعتُ منهج تحليل النص الاستنباطي، وذلك بقراءة عدد من النصوص المتعلقة بحال النبي (ﷺ) وصحابته (رضي الله عنهم)، وتلك التي تحدثت عن مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل البعثة وبعدها، أحاول بيان أن شخص النبي (ﷺ) وصحابته (رضي الله عنهم) لم يُعنوا بإصلاح اجتماعي قبل البعثة ولم يتلقوا غير الوحي، وأن المجتمع في مكة والمدينة كان بعيدًا عما تلاه النبي (ﷺ) من آيات بينات، وأن الله أغاث الأرض بما أنزل على محمدٍ (ﷺ) من الكتاب والحكمة. وحال مناقشة الحداثيين اعتمدت على الكتابات التي ترتدي ثوب الأكاديمية، مثل كتابات عبد المجيد الشرفي، وهشام جعيط، ونصر أبو زيد، وتوفيق فهد، وجوزيف قزّي.

خطة البحث:

ينقسم البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

تشمل المقدمة بيان السياق المعرفي الذي تكوّن من خلاله موضوع الدراسة، والأهداف الرئيسية التي تحاول الدراسة تحقيقها من خلال هذا الموضوع، وأهمية الدراسة؛ بالإضافة إلى المنهجية المتبعة. وفي **المبحث الأول:** بيان لحال النبي (ﷺ) قبل البعثة وبعدها في القرآن الكريم، وفي **المبحث الثاني:** بيان بداية الوحي وقضاياه في القرآن الكريم، وفي **المبحث الثالث:** عوامل التغيير وعدم ارتباطها بالزمان والمكان. ثم الخاتمة وفيها تلخيص للبحث ورصد لأهم نتائجه وبعض التوصيات.

المبحث الأول
حال النبي (ﷺ) قبل البعثة وبعدها في القرآن الكريم

ما كان محمدٌ (ﷺ) أحد الأفذاذ الذين خاضوا صراعًا داخل قبيلتهم ثم صراعًا مع العرب حتى وحدهم وأقام ملكًا مستخدمًا الدين أداةً في ذلك، كما ادعى ديورانت في تاريخه[١]؛ وما كان محمد (ﷺ) يبحث عن مُلك أجداده (قصي ومن بعده هاشم وعبد المطلب) كما افترى سيد القمني[٢] في بعض كتبه[٣]؛ وما كان محمدٌ (ﷺ) مصلحًا اجتماعيًا تألم لحال المستضعفين المهمشين من الفقراء والمساكين في قومه وقام بحركة إصلاح اجتماعي وأكسبه هذا النشاط

(١) ينظر: "**قصة الحضارة**"، لـ ول وَايريل ديورانت، ترجمة محمد بدران، (بيروت، دار الجيل،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج١٣، ٤٧.

(٢) سيد محمود القمني (١٩٤٧م-٢٠٠٢م)، حاصل على ليسانس آداب قسم فلسفة من جامعة عين شمس بالقاهرة، واشتغل بتدريس الفلسفة لطلبة الثانوي في مصر ودولة الكويت، ثم تفرغ للكتابة، وبدأ قاصًا، ثم اتجه للكتابة في الإسلاميات. ينظر: "**أفكار مارقة**"، إبراهيم عوض، (القاهرة، مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١١).

(٣) ينظر: "**الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية: دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية- مدخل إلى قراءة الواقع الاجتماعي لعرب الجاهلية وإفرازاته الأيديولوجية**" لسيد محمود القمني، (المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧).

الاجتماعي نبوة كما ادعي القس "جوزيف قَزِّي"[١] في كتابه نبي الرحمة[٢]؛ ولم يتعرض لإعدادٍ من أحدِ قساوسة النصارى المعاصرين له (ورقة ابن نوفل) كما زعم في كتابه "قس ونبي"[٣]؛ ولم تكن خديجه (رضي الله عنها)، هي التي قامت بأعباء الرسالة تحضيرًا وتخطيطًا وتعليمًا كما افترى خليل عبد الكريم في كتابه "فترة التكوين"[٤]. بل كان إعدادُ محمدٍ (ﷺ) ربانيًا كله. أعده ربه لتلقي رسالته

(١) جُوزيف كَليم قَزِّي (١٩٣٧م-٢٠٢٢م)، كاهن راهب في الرهبانية المارونية اللبنانية، نشر أربعة كتب في تفسير البعثة المحمدية هي "قس ونبي"، و"نبي الرحمة"، "عالم المعجزات"، "أعربي هو"، باسم مستعار "أبو موسى الحريري"، وهذه الكتب الأربعة، بالترتيب، تتصدر سلسلة من اثنين وعشرين كتابًا بعنوان "الحقيقة الصعبة" يقدم فيها رؤيته عن الإسلام والطائفة الدرزية. ينظر: "قراءة في كتاب تبرئة الله للأب جوزف قزي أبو موسى الحريري جزء١" لسامي الذيب، أخذ بتاريخ ٢٠٢٢/٧/٢٩، من الرابط: https://٢u.pw/hJk٤٤

(٢) ينظر: "**نبي الرحمة: بحث في مجتمع مكة**" لأبي موسى الحريري، (لبنان، دار من أجل المعرفة، ١٩٩٠م)، ص٧.

(٣) ينظر: "**قس ونبي: بحث في نشأة الإسلام**" لأبي موسى الحريري، (لبنان، دار لأجل المعرفة، ٢٠٠٥). ويدور الكتاب على فكرة رئيسية هي الزعم بأن النصرانية كانت منتشرة في الجزيرة العربية بشكل كثيف وخاصة مكة، وأن محمدًا (ﷺ) تعلم على يد زعيم قساوسة مكة (أسقف إبراشية مكة على حد وصفه) ورقة بن نوفل. بمعنى أن ورقة بن نوفل هو مصدر البعثة المحمدية كتابًا وسنة!! سبحانه هذا بهتان عظيم!

(٤) خليل عبد الكريم، **فترة التكوين في حياة الصادق الأمين**، (القاهرة، دار مصر المحروسة، ٢٠٠٤). يكاد ينحصر الكتاب في التنظير لفكرة واحدة وهي الزعم بأن خديجة بنت خويلد، (رضي الله عنها)، هي التي علّمت رسول الله (ﷺ) القرآن والسنة، والشرائع، وهي التي وضعت خطة البعثة المحمدية كاملةً، والزعم الكاذب بأن محمدًا (ﷺ) لم يكن سوى شخص فطن تعلم سريعًا ونفذ بكفاءة عالية. وهذا الإفك البيّن لم يقل به أحد قبل خليل عبد الكريم من السابقين أو اللاحقين.

وتبليغها للناس، يقول الله: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ ﴾[1].

ومِنْ تأملِ حال الرسول (ﷺ) قبل البعثة وبعدها نستطيع أن نقف على **وفرة من الأدلة النقلية** و**العقلية التي تبين هذا الإعداد الرباني، وتساعدنا في الإجابة على سؤال الدراسة** (هل كان القرآن الكريم مؤسسًا لواقع جديد أم كان نتاج الواقع الذي ظهر فيه؟!).

ونقدم هذه الأدلة مُرتّبةً حسب سياقها الزماني: فنبدأ بالبشارات التي سبقت مولده وبعثته (ﷺ)؛ والعناية الربانية به (ﷺ) منذ ولادته (ﷺ)؛ مرورًا بلزومه مكة المكرمة وعدم مفارقته لأهلها حتى في المرتين اللتين خرج فيهما للشام متاجرًا فقد كان بينهم لم يفارقهم؛ وعدم مشاركته قومه في شيء يخل بالمروءة والديانة؛ وأميته، (ﷺ)؛ وعدم تلقيه علمًا من بشر؛ وانتهاءً بما ورد في كتاب الله من آيات بينات تنص على أنه رسول من الله، وذلك على النحو التالي:

أولا: فيما يتعلق بالبشارات قبل مبعثه (ﷺ).

الهدف من استحضار البشارات كدليل عقلي ونقلي على أن الوحي رسالة من الله ولم يظهر بفعل تفاعلات بشرية في مكة ثم المدينة، هو بيان أن البشرية، وخاصة اليهود والنصارى، كانت تنتظر رسولًا من الله ليصلح ما أفسده عصاة البشر. وهنا **مسألتان: الأولى:** أن اليهود والنصارى كانوا ينتظرون رسولًا. **والثانية:** أنهم كانوا يعرفونه (ﷺ) بأوصافه التي لا تنطبق إلا على شخصه هو (ﷺ). بمعنى أن البشرى لم تكن عامة بحيث تشتبه عليهم أو يدعيها أكثر من شخص. بل كانت تفصيلية لا تنطبق إلا على محمدٍ بن عبد الله (ﷺ) يقول الله

(١) سورة الحج: آية ٧٥.

تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[1]، ويقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[2]، ويقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[3]، والمقصود هنا علماءهم لا عوامهم وذلك لأن الجمع العظيم إذا علموا شيئًا استحال عليهم الاتفاق على كتمانه في العادة[4]. بمعنى أن انحسار العلم في قلة منهم (الأحبار) سهَّل عليهم تحريف النص ونزع البشارات منه بعد بعثة محمدٍ (ﷺ).

وإنّ علمهم بقرب بعثةِ رسولٍ يغيث الله به العباد والبلاد، وكذلك علمهم بصفاته الخلقية والجسدية، شديد الوضوح فيما روي عن أحبارهم، مثل حديث

---

(١) سورة الأعراف: من الآية ١٥٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٤٦.

(٣) سورة الأنعام: آية ٢٠.

(٤) ينظر: "**مفاتيح الغيب**" للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ج٤، ص٦٥٤. وأوردتُ الآيتين لأن إحداهما (آية البقرة) للدلالة على علمهم بأن البيت الحرام هو قبلة المسلمين، وأما آية الأنعام فهي المقصودة في سياقنا (الدلالة على علمهم بأن محمدًا (ﷺ) رسول مبعوث من عند الله) وحين يتجادلون مع المسلمين يأتون بأقوال أهل العلم في آية البقرة دون آية الأنعام للزعم بأن المعرفة تتعلق بالقبلة فقط، وهذا غير صحيح. ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، ج٣، ص١٨٨، وج١١، ص٢٩٥.

أحبار اليهود في المدينة (يثرب) لمن حاصرها وأراد إهلاكها من ملوك تُبّع[١]، وفيه قولهم له: "أيها الملك لا تفعل. فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: ولم ذلك؟ فقالا: هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره"[٢]. ومثل ما ورد عن زعيم يهود بني النضير حيي بن أخطب حين رأى رسول الله (ﷺ) يوم دخوله المدينة مهاجرًا وقال لأخيه: "هو هو"[٣]. ومثل ما ورد في قصة إسلام عبد الله بن سلام وغيره من أحبار اليهود (ﷺ) وكيف أنهم كانوا يعلمون صفات رسول الله، (ﷺ) الجسدية والخلقية، والحديث في صحيح البخاري وفيه أن عبد الله بن سلام قال لهم: "يا مَعْشَرَ اليَهُودِ، اتَّقُوا اللَّهَ؛ فَواللَّهِ الذي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّه رَسولُ اللَّهِ، وأَنَّهُ جاءَ بحَقٍّ، فقالوا: كَذَبْتَ، فأخْرَجَهُمْ رَسولُ اللَّهِ (ﷺ)"[٤].

---

(١) "وتُبّع لقب لِمَن يملك جميع بلاد اليمن حِمْيرًا وسبأ وحضرموت، فلا يطلق على الملك لقب تُبّع إلا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة. قيل سمّوه تُبّعاً باسم الظل لأنه يَتبع الشمس كما يتبع الظل الشمس، ومعنى ذلك: أنه يسير بغزاوته إلى كل مكان تطلع عليه الشمس، كما قال تعالى في ذي القرنين ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف: ٨٥ "، ينظر: "**التحرير والتنوير**" لمحمد الطاهر بن عاشور، (تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م)، ج٣٥، ص٣٠٩.

(٢) ينظر: "**السيرة النبوية**" لعبد الملك بن هشام، (بيروت، دار الجيل، ١٤١١هـ)، ج١، ص١٣٤.

(٣) ينظر: "**السيرة النبوية**" لعبد الملك بن هشام، مرجع سابق، ج٣، ص٤٩، و ص٥٢.

(٤) ينظر: "**الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول (ﷺ) وسننه وأيامه**" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي (ﷺ) وأصحابه إلى المدينة، ج٢، ص١٤٢٣. وأورد الذهبي تفاصيل الأسئلة التي=

وبه (ﷺ) بشَّر عيسى بن مريم، (عليه السلام)، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[1]، "قيل إن صفته في التوراة أن مولده بمكة ومسكنه بطيبة وملكه بالشام وأمته الحمادون" "قال المسيح للحواريين: «أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يقال له"[2]. وظهرت هذه البشارة فيما ورد عن رهبان النصارى، ومن الشواهد على ذلك أن بحيرا الراهب كان يترقب القادمين من مكة وعَرِفَهُ (ﷺ) وأثبت له صفة اليتم[3]؛ وكذا عَرِفَهُ نسطورا الراهب بصفةٍ أدق (حمرة في العين)[4]. ومن الشواهد، كذلك، ما جاء في قصة إسلام سلمان الفارسي، (رضي الله عنه)، من معرفة الرهبان به وانتظارهم له (ﷺ)[5]؛ وما ورد في خبر أمية بن أبي الصلت وكيف أنه كان

=علموا من خلالها أن محمدًا (ﷺ) هو الموصوف عندهم في التوراة والإنجيل، ينظر: "**سير أعلام النبلاء**" للإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (بيروت، الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ج١، ص٢٨٨.

(١) سورة الصف: آية ٦.

(٢) ينظر: "**مفاتيح الغيب**" للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي، مرجع سابق، ج٣، ص٤٨١.

(٣) ينظر: "**عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**" لمحمد بن عبد الله بن يحي بن سيد الناس، (بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦)، ج١، ص٦٢.

(٤) ينظر: "**عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**" لمحمد بن عبد الله بن يحي بن سيد الناس، مرجع سابق، ج١، ص١٢٨. وينظر: "دلائل النبوة" لابي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، (بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ج١، ص١٧٢.

(٥) ينظر: "**سير أعلام النبلاء**" للإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مرجع سابق، ج١، ص٩٠.

يَعلم من رهبان النصارى أن الله سيرسل رسولًا من قريش، ولما جاءه ما عرف كفر، بغيًا وحسدًا(١).

وحتى قريش كانت ترجو أن يرسل الله لها رسولًا ليصلح ما فسد من حالها، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾(٢)، ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾(٣)، فقد كانت قريش تتمنى رسولًا وتتعجب من تكذيب اليهود والنصارى للرسل ويقولون: "لو أن الله بعث فينا نبيا ما كانت أمة أطوع لخالقها ولا أسمع ولا أشد تمسكا بكتابها منا"(٤). وأورد السيوطي، وغيره، أخبارًا تبين أن الأحناف كانوا ينتظرون نبيًا يعرفون أنه يبعث من أواسط العرب نسبًا(٥).

---

(١) ينظر: "**الخصائص الكبرى**"، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (بيروت، دار الكتب العلمية،١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج١، ص١٦٧. وأمية بن أبي الصلت من ثقيف وإنما أخواله هم الذين من قريش، وخبره مشهور، ينظر: "**أسد الغابة في معرفة الصحابة**" لعلي بن محمد الجزري (ابن الأثير)، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ه/١٩٩٤م)، ج٣ ص٣١٠.

(٢) سورة فاطر: آية ٤٢.

(٣) سورة الصافات: ١٦٧ – ١٦٩.

(٤) ينظر: "**لباب النقول في أسباب النزول**" للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (بيروت، دار إحياء العلوم، ١٤٢٦/٢٠٠٦)، ص١٩٨.

(٥) ينظر: "**الخصائص الكبرى**"، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مرجع سابق، ص٤٣.

ثانيًا: العناية الربانية به (ﷺ) منذ الصغر.

ومن أمثلة ذلك: شق صدره الشريف وإخراج حظ الشيطان من قلبه[١]، وحفظه من التعري في الصبا[٢]، وحفظه من شهود اللهو[٣]. وما اشتهر به من حسن الخلق حتى وصف بالصدق والأمانة [٤].

ومهم هنا أن نرصد أن هذه الأخلاق الكريمة لم تكن ثمرة عزلة وبُعْدٍ عن الناس. بل وجدت مع مخالطة للناس، وفي أكثر المواطن التي يقِلُّ فيها حسن الخلق كالأسواق (التجارة) والسفر. ولذا حين صعد الصفا في أول مبعثه (ﷺ) وجعل ينادي عليهم حتى اجتمعوا إليه، قالوا له: "**ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كذبًا**" (ﷺ). ولم يشارك المشركين في شيء من شركهم، ومن شواهد ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة أنه

---

(١) ينظر: "**المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)**" للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، (بيروت، دار الجيل، د.ت)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله (ﷺ) إلى السماوات، وفرض الصلوات، ج١،ص١٤٥. وينظر: "**دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**" لأحمد بن الحسين البيهقي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥هـ)، ج٢، ص٥.

(٢) والحادثة في بناء الكعبة حين كان ينقل الحجارة رفقة عمه العباس بن عبد المطلب، ينظر: "**الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه**" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، "كتاب فضائل الصحابة، باب بناء الكعبة، ج٣، ص ١٣٩٢، وكتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، ج٢، ص ٥٧٣.

(٣) ينظر: "**الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**"، لمحمد بن حبان، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، باب بدء الخلق: ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن النبي (ﷺ) كان على دين قومه قبل أن يوحى إليه"، ج١٤، ص١٦٩.

(٤) ينظر: "**المستدرك على الصحيحين**" للحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ج١، ص٦٢٨.

سمع النبي (ﷺ) وهو يقول لخديجة: "أي خديجة، والله لا أعبد اللات، والله لا أعبد العزى أبدًا، فتقول خديجة: خلِّ اللات، خلّ العزى، قال: كانت صنمهم التي كانوا يعبدون ثم يضطجعون"(١). و"جاء في قصة بحيرا الراهب أنه استحلف النبي (ﷺ) باللات والعزى حينما لقيه بالشام في سفره مع عمه أبي طالب وهو صبى، لما رأى فيه علامات النبوة، فقال بحيرا للنبي (ﷺ): يا غلام أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فقال له النبي، (ﷺ)،:" لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت بغضهما شيئًا قط"(٢). ولم يكن (ﷺ) يأكل ما ذُبح على النُصُب(٣). ولم يكن يشارك المشركين من قومه في==

(١) ينظر: "**مسند الإمام أحمد بن حنبل**" للإمام أحمد بن محمد بن حنبل، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ج٢٩، ص٤٦٧. سناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير جار خديجة فلم يرو له غير المصنف هذا الحديث الواحد، وهو صحابي، وجهالته لا تضر.

(٢) ينظر: "**السيرة النبوية لابن هشام**"، لعبد الملك بن هشام، (القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، ص١٨٢.

(٣) أورد الدكتور "جواد علي" تحقيقًا موسعًا عن معنى النصب، ذكر فيه أقوال أهل اللغة وأهل التفسير وما أورده الإخباريون عن النصب في الجاهلية، وخلاصته أن النصب منصّة أو بناء مرتفعًا بجوار الصنم أو البيت، تذبح عليه القرابين ويستخدم كمنبر يعلوه من يقف خطيبًا يعظ الناس ويحرضهم على التقرب والعبادة. ينظر: "**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**"، لجواد علي، (العراق، جامعة بغداد، ١٤١٣، ١٩٩٣م)، ج٦، ص ٤١٩-٤٢٢. وينظر: "**فتح الباري شرح صحيح البخاري**"، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ)، ج٧، ص١٤٣، ١٤٤. وينظر: "**رد شبهات حول عصمة النبي (ﷺ) في ضوء السنة النبوية الشريفة**" لعماد السيد الشربيني، (القاهرة، مطابع دار الصحيفة، ٢٠٠٣)، ص ص ٧٩، ٨٠. وفيه إيراد=

== مناسكهم[1]، وذلك أن العرب كانوا يقفون بعرفة وقريشًا ومن دان بدينها من الحُمس كانوا يقفون بالمزدلفة، يقولون: نحن أهل الله لا نخرج من الحرم، فكان النبي (ﷺ) يقف بعرفه مع الناس، وكان ينفر من عرفة بعد الغروب لا قبله كما كان يفعل أهل الجاهلية، وكان ينفر من مزدلفة (في اليوم التالي) قبيل الشروق لا بعده، وهذا من هداية الله له[2]. وحبب الله إليه الخلاء في غار حراء وحيدًا لا مشاركًا لأحدٍ من قومه ولا مهتديًا بأحدٍ من قومه[3]. يقول بن هشام في السيرة"...فشب رسول الله (ﷺ) والله تعالى يكلؤه ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أنْ كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا،

=وتوضيح لما أشكل في حديث زيد بن عمرو بن نفيل حين التقى الرسول (ﷺ) ومعه زيد بن حارثة ومعهما شاة ذبحت على نصب كونه المكان المخصص للذبح، لا أنها ذبحت للصنم وإلا لتركت لمن يأتون للصنم ويعتكفون حوله.

(١) للوقوف على تفصيل ما كانت عليه العرب في النسك ينظر: "**مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (ﷺ)**"، أحمد إبراهيم الشريف، (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص١٥١-١٨٤.

(٢) ينظر:"**المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)** "للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، مرجع سابق، ج٤، ص٤٣؛ وينظر: "**المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**" للإمام محي الدين يحى بن شرف النووي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م)، ج٨، ص١٩٧.

(٣) ينظر: "**الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه**" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله (ﷺ)، ج١، ص٤.

وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى سمّي في قومه الأمين، لِما جمع الله فيه من الأمور الصالحة"[1].

ثالثا: لزومه (ﷺ) مكة وأهلها.

ومما يبين أن الرسول (ﷺ) لم يكن نتاج البيئة التي نشأ فيها وإنما رسول من الله أرسله الله برسالة غيرت مكة ومن حولها، حاله (ﷺ) قبل البعثة، ومن أهم ما يذكر هنا أنه (ﷺ)، لم يخرج من شعاب مكة، ولم يفارق أهلها ولذا احتج الله على المكذبين الضالين بصحبة النبي (ﷺ) لهم، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[2]، ويقول الله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾[3]، ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[4]. والتعبير بلفظ الصاحب "للتّذكير بأنهم يعرفون سيرته معرفة كاملة في سنّ الصّبا وعهد الشّباب والكهولة وبعد النّبوة"[5].

والمصلحون والنابغون من غير الأنبياء تظهر عليهم أمارات النبوغ والتخصص مبكرًا، أما محمد (ﷺ) فقد مكث بين ظهرانيهم أربعين سنة ولم يحدثهم، أو يدعهم إلى شيء مما حدثهم به ودعاهم إليه بعد البعثة، يقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ

(١) ينظر: "**السيرة النبوية**"، لعبد الملك بن هشام، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٢) سورة سبأ: آية ٤٦.

(٣) سورة النجم: آية ٢.

(٤) سورة التكوير: آية ٢٢.

(٥) ينظر: "**التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**" لوهبة مصطفى الزحيلي، (دمشق، دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج٩، ص١٨٣.

فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[1]، والمعنى: "أني لو كنت منتحلا ما ليس لي من القول، كنت قد انتحلته في أيّام شبابي وحَداثتي"[2]، والمعنى، كما عند الزجاج،: "قد لبثت فيكم من قبل أن يوحى إلي لا أتلو كتابا ولا أخطه بيميني، وهذا دليل على أنه أوحي إلي؛ إذ كنتم تعرفونني بينكم، نشأت لا أقرأ كتابا، وإخباري إياكم أقاصيص الأولين من غير كتاب ولا تلقين يدل على أن ما أتيت به من عند الله وحي"[3].

ومن ذلك، قول الله تعالى:﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[5]. ومن عجيب ما يذكر هنا أن النبي (ﷺ) لم يتشبه بالمتدينين في الجاهلية، وهم الأحناف، ولم يكن عنده دراية بالنبوة كما في حالة أمية بن أبي الصلت مثلًا[6].

---

(١) سورة يونس: الآية ١٦.

(٢) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" **للإمام محمد بن جرير الطبري**، مرجع سابق، ج١٥، ص٤١.

(٣) ينظر: "**معاني القرآن وإعرابه**"، لإبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، (بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٣، ص١١.

(٤) سورة القصص: آية ٨٦.

(٥) سورة الشورى: آية ٥٢.

(٦) ينظر: "**الخصائص الكبرى**"، للإمام عبد الرحمن السيوطي، مرجع سابق، ص١٦٧.

رابعا: أمية الرسول (ﷺ).

من أظهر الأدلة على أن محمدًا (ﷺ) كان مبلغاً عن ربه، (ﷻ) و(ﷻ)، ولم يكن متحدثًا من تلقاء نفسه أو صنيعة أحدٍ ممن حوله، أنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فصفة الأمية مثبتة لرسول الله (ﷺ) بصريح القرآن الكريم على عكس ما يدعيه هشام جعيط فيما كتب عن الوحي[1]، يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[2]، ويقول الله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ﴾[3]، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب. على جِبِلَّتِه. بمعنى أنه منسوب إلى ما عليه ولدته أُمُّهُ، وذلك لأن الكتابة مكتسبة[4]. ولذا حين جاءه الملك في غار حراء وأمره بالقراءة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾[5] أجاب بأنه لا يستطيع القراءة[6].

وإن الذين يجادلون في أمية الرسول (ﷺ) لم يتجرأ أحدهم على القول بوجود معلمٍ من البشر يتلقى منه الرسول (ﷺ) بعد البعثة. حتى أولئك الذين يستحضرونهم في حديثهم كورقة بن نوفل، وبحيرا الراهب، وعدّاس، لم يلتقيهم

---

(١) ينظر: "**في السيرة النبوية ١: الوحي والقرآن والنبوة**"، لهشام جعيط، (بيروت، دار الطليعة،٢٠٠٠م)، ص٤٥.

(٢) الأعراف: من الآية ١٥٧.

(٣) الأعراف: من الآية ١٥٨.

(٤) جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت، دار الصادر،١٤١٤هـ)، ج١٢، ص٣٤.

(٥) سورة العلق: آية ١.

(٦) ينظر:" **الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه**" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، كتاب التعبير، باب "أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من الوحي الرؤيا"، ج٦، ص٢٥٦١.

الرسول (ﷺ) إلا برهة من الزمن، ولقاءً عابرًا قبل البعثة أو في أولها. وبعضهم أعاجم لا يحسنون العربية ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1]، وكلهم لم يُروَ عنهم شيئًا مما قاله الرسول (ﷺ) أو فعله، بمعنى أن بحيرا وورقة وغيرهم لم يعرفوا بشيء مما فعله أو قاله الرسول (ﷺ). ولذا فإن الله العليم الخبير في الذكر الحكيم يحاج المكذبين الضالين بأمية الرسول (ﷺ) يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2]، والمعنى: "وما كنت تتلو يا محمد من قبله من كتاب، يعني من قبل ما أنزلنا إليك الكتاب، ولا تخطه بيمينك، يعني ولا تكتبه، يعني لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي، إذا لارتاب المبطلون، يعني لو كنت تقرأ أو تكتب قبل الوحي لشك المبطلون المشركون من أهل مكة، وقالوا: إنه يقرؤه من كتب الأولين وينسخه منها، قاله قتادة"[3]. "ومعنى: ما كنت تتلو من قبله من كتاب أنك لم تكن تقرأ كتابًا، حتى يقول أحد: هذا القرآن الذي جاء به هو مما كان يتلوه من قبلُ، ولا تخطه أي لا تكتب كتابًا ولو كنت لا تتلوه، فالمقصود نفي حالتي التعلم، وهما التعلم بالقراءة والتعلم بالكتابة استقصاءً في تحقيق وصف الأمية"[4]، و"﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ يعني بيان أمر محمد آيات بَيِّناتٌ واضحات

(١) سورة النحل: آية ١٠٣.

(٢) سورة العنكبوت: الآيات ٤٨ – ٤٩.

(٣) الحسين بن مسعود البغوي، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠)، ج٣، ص ٥٦٣.

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج ٢٠، ص١٨٥.

فِي التوراة أَنَّهُ أمي لا يقرأ الكتاب وَلا يخط بيمينه"[١]، ومثله قول الله تعالى: يقــول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[٢]، والمقصود بالآيات البينات هنا دلائل النبوة من إخباره (ﷺ) بـــ"خفايا علوم اليهود ومكنون سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة، فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد (ﷺ). فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل الذي أتى به محمد (ﷺ) من الآيات البينات التي وصفت من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيء منه عن آدمي"[٣]. وفي سبب نزول الآية ذكر العلماء حوارًا بين أحبار اليهود والنبي (ﷺ) يسألونه عن غيبيات ويخبرهم، ثم حين علموا أنه رسول من الله كفروا بدعوى عداوة جبريل لهم[٤].

نعم لم يثبت عنه (ﷺ) المطالعة والدراسة في علمٍ من العلوم أو فنٍ من الفنون، وزجر عمر بن الخطاب، (رضي الله عنه)، حين رآه يقرأ في صحف يهود، قائلًا:

---

(١) ينظر: "**تفسير مقاتل بن سليمان**" للإمام مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، (بيــروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٣هـــ)، ج١، ص١٣٤.

(٢) سورة البقرة: آية ٩٩.

(٣) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" **للإمام محمد بن جرير الطبري**، مرجــع ســابق، ج٢، ص٣٠٥.

(٤) ينظر: "**أسباب نزول القرآن**" لعلي بــن أحمــد الواحــدي، (الــدمام، دار الإصــلاح، ١٤١٢هـــ/١٩٩٢م)، ص٣٠.

"مُتَهوِّكون أنتُم كما تَهوَّكَتِ اليهودُ والنَّصارى؟ أمَا والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِه لقد جِئتُكُم بها بَيضاءَ نَقيَّةً، ولكنِّي أُعطيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ، واختُصِرَ لي الحَديثُ اختِصارًا"(١).

خامسا: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾(٢):

ومما يبين أن محمدًا (ﷺ) رسول أعده ربه وأرسله الله برسالة تغيرت بها مكة ومن حولها، ولم يكن من نتاج البيئة التي نشأ فيها، ما ذكره العليم الخبير، (ﷻ)، في أكثر من موضع من كتابه من أن **القرآن والسنة (الحكمة).. أي كل ما تكلَّمَ به محمدٌ (ﷺ) وفَعَلَهُ، منزلٌ من الله.** يقول الله تعالى:﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣ ﴾(٣). ويقول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾(٤)، ويقول الله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(٥) وتأمل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ

---

(١) أورده ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾ سورة يوسف: آية ٣. بروايات عدة. ينظر: "**تفسير القرآن العظيم**" للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، (بيروت، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج٤، ص٣٦٧. وينظر: "**شعب الإيمان** " للإمام أحمد بن الحسين البيهقي، (الرياض، مكتبة الراشدين، ١٤٢٣هـ /٢٠٠٣م)، ج٧، ص١٧١.

(٢) سورة النجم: آية ٤.

(٣) سورة النساء: ١١٣

(٤) سورة البقرة: من الآية ٢٣١.

(٥) سورة النجم: آية ٤.

كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[1]. والمعنى أن ما أمر به (ﷺ)، هو تحقيق العبادة في شخصه الكريم، وأن يبلغ الناس القرآن، فرسالته هي البلاغ والإنذار مثل "الرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخَلَصُوا من عهدتهم"[2]. ومثله قول الله تعالى: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[3].

وقد جاء هذا المعنى، أي قصر صفة محمد (ﷺ) على أداء رسالة أرسل بها من الله تتمثل في تعليم الناس الكتاب والسنة، بأكثر من أسلوب في كتاب الله، سواءً في التحدث لشخص الرسول (ﷺ) مثل: قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾[4]، أم في التحدث لمن أرسل إليهم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾[5]. أم في وصف محمد (ﷺ) لنفسه، مثل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ

(١) النمل: ٩١ – ٩٢.

(٢) ينظر: "**تفسير القرآن العظيم**"، للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق، ج٦، ص٢١٨.

(٣) سورة الأنعام: من الآية ٥٠.

(٤) سورة آل عمران: آية ٢٠. ومثله: سورة الرعد: آية ٤٠. وسورة النحل: آية ٨٢. وسورة الحج: الآية ٤٩، وسورة الشورى: من الآية ٤٨.

(٥) سورة المائدة: الآية ٩٢.، ومثله: سورة المائدة: آية ٩٩، وسورة الأعراف: آية ١٨٤، وسورة النحل: آية ٣٥. وسورة العنكبوت: آية ١٨.

أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾[1].

والمعنى: "يقول: فاعلموا أنه ليس على من أرسلناه إليكم بالنِّذَارة غير إبلاغكم الرسالة التي أرسل بها إليكم، مبينةً لكم بيانًا يُوضِّح لكم سبيل الحقّ، والطريقَ الذي أمرتم أن تسلكوه"[2]. وهذا عام مضطرد في حق الرسل جميعًا ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[3]، فالله هو الذي يصلح حال الناس بمن يرسلهم من عباده ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾[4].

والمقصود من هذا المبحث أن شخص الرسول (ﷺ) تعرض لإعداد رباني من الله، (ﷻ)، ولم يكن نتاج البيئة التي نشأ فيها، وأنه، كما ورد في البشارات التي سبق ذكرها"يقول ما يقال له"، أو بتعبير القرآن الكريم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[5]﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[6]. فهو أول من تغير بالوحي (ﷺ) ثم من خلال ما قام به من البلاغ المبين بدأ تأثير القرآن الكريم في مكة والمدينة والعالم أجمع.

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٨، ومثله سورة هود: آية ٢. ومثله: سورة الشعراء: آية ١١٥.

(٢) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج١٠، ص٥٧٥. ج٩، ص٤٨٠.

(٣) سورة النساء: آية ١٦٥.

(٤) سورة الحج: آية ٧٥.

(٥) سورة النجم: آية ٤.

(٦) سورة آل عمران: من الآية ١٤٤.

المبحث الثاني
بداية الوحي، وقضاياه

لم ينشأ الوحي من تحديات تعرض لها شخص الرسول (ﷺ) في مكة قبل البعثة. والذين خوطبوا بالوحي أول مرة لم يؤمنوا كلهم بل كفر كثير منهم وقعدوا بكل صراطٍ يعيدون ويصدون عن سبيل الله من آمن؛ وخاطب الوحيُ الناس بقضايا جديدة لم يكن أكثرها من جنس ما يدار بين الناس في أم القرى ومن حولها؛ وأحدث الوحيُ تغيرًا جذريًا (تزكيةً) فيمن آمن واتبع فصار خَلْقًا آخر غير الذي كان في الجاهلية؛ والمؤمنون بالله وما أنزل على رسوله (ﷺ) غيروا بالوحي عبادًا وبلادًا من أماكن مختلفة (الجزيرة العربية وفارس والروم وأفريقيا) وفي أزمنةٍ مديدة. فكانت بداية الوحي، وقضاياه، والتغير الذي أحدثه في الأشخاص والأمكنة عبر أزمنة مديدة، كانت كلها أمارات على أن الله أسس، بما أنزل على رسوله (ﷺ) من الكتاب والحكمة – واقعًا جديدًا لا أن الوحي أنتجته البيئة التي ظهر فيها (مكة والمدينة)، وإليك مزيد بيان تحت عناوين جانبية على النحو التالي:

أولا: بداية الوحي:

حاول المؤرخ البريطاني الشهير "أرنولد توينبي" تفسير نشوء الحضارات من خلال نظريةٍ[1] سمّاها "التحدي==

(١) والنظرية هنا بمعنى الفرضية، يتم افتراضها من خلال القناعة ببعض المقولات التفسيرية (التحدي والاستجابة هنا) والتدليل عليها ببعض الظواهر الاجتماعية. ولا تكون مضطردة غالبًا، إذ أن نظريات علم الاجتماع ليست حقائق علمية ثابتة. ويتضح هذا من المناقشة في النص أعلاه، ينظر:"علم الاجتماع: غبش في التصور وتشويش في النظرية"، لأحمد إبراهيم خضر، أخذ من موقع الألوكة بتاريخ ٢٠٢٢/١٢/٢٢: https://cutt.us/FVt٩x

== والاستجابة"[١]. وفيها يفترض أن الأمم تبدأ في إنشاء حضارتها حين يمارس عليها نوعًا من التحدي يحفزها للاستجابة في اتجاه معاكس، يقول: إن الضرورة هي أم الاختراع والعناد (العزم والإصرار) أبوه، ومنهما (الضرورة والعناد= التحدي والاستجابة) تبدأ الحضارات[٢]!

يحاول "توينبي" والمؤمنون بنظريته، تفسير حركة الإنسانية (التاريخ) في إطار الفعل ورد الفعل، ويهملون الرسل وما أرسلوا به. لا يتحدثون عن إرادة الله في اصطفاء بعض خلقه وإرسالهم لإصلاح دنيا الناس وأخراهم بمنهج الله، يقول الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[٣]، بل إن "تونبي" يستخف بالرسل ويسميهم أرباب الأساطير[٤]!!

ولا تصلح نظرية توينبي هذه لتفسير البعثة المحمدية، وذلك أن محمدًا (ﷺ) بدأ بعد أن أتاه مَلَك الوحي جبريل (عليه السلام) برسالة من الله ليبلغها للناس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾[٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

(١) ينظر: "**بحث في التاريخ**" لأرنولد توينبي، ترجمة طه باقر، (بيروت، الورّاق، ٢٠١٤) ج١، ص١٣١- ١٦٤.

(٢) ينظر:"**بحث في التاريخ**" لأرنولد توينبي، ترجمة طه باقر، مرجع سابق، ص١٤٥.

(٣) سورة النساء: آية ١٦٥.

(٤) يتجاهل الرسالات في كتابه، ومن بعيد يشير إلى أنبياء بني إسرائيل في العهد القديم بأنهم أرباب أساطير، ويعني بالأساطير الخرافات. ويقدم أسبابًا مادية لنهوض الأمم، مثل: الأرض الجديدة، والضربات، والضغط، والحرمان، ينظر: "**بحث في التاريخ**" لأرنولد توينبي، ترجمة طه باقر، مرجع سابق، ص ١٣٣- ص ٢٤٣.

(٥) سورة المدثر: الآيات ١ – ٢.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ٦٧﴾[1]، "وفعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أُمر به؛ ولهذا سألهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد، والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: "إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟" فقالوا: نشهد أنك قد بَلَّغت وأدَّيت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: "اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد"[2]. والمصلحون من أتباع الأنبياء يتحركون من منطلق الأمانة التي استحفظوا عليها كونهم ورثة الأنبياء، وأنهم مأمورون بالدعوة إلى الله، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾[3]، والمعنى: "أدعو إلى الله وحده لا شريك له ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، بذلك، ويقينٍ عليمٍ منّي به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضًا من اتبعني وصدقني وآمن بي"[4].

ثانيًا: التكذيب ومحاربة الدعوة:

لم يعرف أهل مكة ومن حولها كتابًا قبل القرآن الكريم، ولا رسولًا قبل محمدٍ (ﷺ)، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ٤٤﴾[5]، والمعنى: "أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل

---

(١) سورة المائدة: آية ٦٧.

(٢) ينظر: "**تفسير القرآن العظيم**" للإمام إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٢٧. والحديث في الصحيح، ينظر: "**المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)**"، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، كتاب الحج، باب حجة النبي (ﷺ) ج٢، ص٨٩٠.

(٣) سورة يوسف: آية ١٠٨.

(٤) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" **للإمام محمد بن جرير الطبري**، مرجع سابق، ج١٦، ص٢٩١.

(٥) سورة سبأ: آية ٤٤. ومثله: سورة القصص: آية ٤٦.

القرآن، وما أُرسل إليهم نبيًا قبل محمد (ﷺ) وهذا المعنى متكرر في القرآن الكريم، بمعنى أنه شائع لا يخفى على دارس لكتاب الله فكيف يقال أن الوحي منتج ثقافي أنتجته قريش، يقول الله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1]. نعم. لم تعرف قريش الكتب ولا الرسالات "فلمّا مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه"[2]، يقول الله تعالى:﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[3] ويقول الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾[4]. لم يؤمن من قريش إلا قليل، واجتمعت كلمة الملأ منهم على الكفر والصد عن سبيل الله، يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[5]، وليس هذا فقط، بل والاستهزاء بشخص الرسول (ﷺ) ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾[6]، والاستهزاء

(١) سورة القصص: آية ٤٦.

(٢) ينظر: "**تفسير القرآن العظيم**" للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، (بيروت، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ج٦، ص٥٢٥.

(٣) سورة الصافات: الآيات ١٦٧ – ١٧٠.

(٤) سورة فاطر: آية ٤٢.

(٥) سورة فصلت: آية ٢٦.

(٦) الفرقان: ٤١.

بمن آمن بالله وما أنزل على رسوله (ﷺ) يقول الله تعالى حكاية عنهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۚ﴾[1]، ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ ﴾[2]، وهذا حال أهل الكفر مع أهل الإيمان من لدن نوح إلى محمد(ﷺ)[3].

وكذلك فعلت يهود في المدينة، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ ﴾[4]، كانوا يعرفون النبي (ﷺ) وينتظرونه وحين جاءهم كفروا به "حسدًا وخوفًا على الرياسة"[5].

وهذا العناد والتكذيب والحرب للدعوة بكل الوسائل يبين بوضوح أننا لسنا أمام حالة من التواطؤ على فكرة وإنتاجها، وإنما أمام رسالة من الله حاربها الملأ في مكة والمدينة وساندهم من تبعهم من العوام، تمامًا كما حدث مع كل رسول أرسل من قبل ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾[6]، ويقول الله تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم

---

(١) سورة الأنعام: من الآية ٥٣.

(٢) سورة المطففين: الآيات ٢٩ – ٣١.

(٣) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**"، للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج١٧، ص١٢٦-١٢٧.

(٤) سورة البقرة: آية ٨٩.

(٥) ينظر: "**مدارك التنزيل وحقائق التأويل**" للإمام عبد الله بن أحمد النسفي، (بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٥)، ج١، ص٧٦.

(٦) سورة المؤمنون: من الآية٤٤.

بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1]، ويظهر هذا المعنى بوضوح من الحال بين الملأ والعوام يوم القيامة حين يقفون بين يدي الله العليم الخبير، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2]، وهذا كثير ومتكرر في القرآن الكريم، وقد جمع علماء التفسير الآيات التي يتبرأ فيها الأتباع من المتبوعين، في تفسيرهم لها وذلك لإظهار عدم وجود سبب للكفر غير الإغواء والمكر من قبل المتبوعين وطلب اللذة العاجلة من الأتباع[3]. والمقصود بيانه هنا هو: أنها لم تكن حالة من التواطؤ على إنتاج الرسالة بل كانت حالة من الكفر والصد والحرب من الخواص (الملأ) والعوام (الأتباع) .. حالة من مواجهة القرآن الكريم للسائد في مكة والمدينة بجديد غير معروفٍ لهم أوحي الله به إلى محمد (ﷺ). ثم نصر الله رسوله وتغير واقع مكة والمدينة، تمامًا كما حدث مع الرسل من قبل، يقول الله

(١) سورة سبأ: آية ٣٤.

(٢) سورة سبأ: الآيات ٣١ – ٣٣.

(٣) ينظر: "**مفاتيح الغيب**" للإمام محمد بن عمر الرازي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ)، ج٢٥، ص٢٠٧. وينظر: "**تفسير القرآن العظيم**" للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٤٧٧.

تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦ ﴾[1]، والمعنى: "ثم أهلكنا الذين جحدوا رسالة رسلنا، وحقيقة ما دعوهم إليه من آياتنا وأصروا على جحودهم (فكيف كان نكير) يقول: فانظر يا محمد كيف كان تغييري بهم وحلول عقوبتي بهم"[2].

ثالثا: قضايا جديدة:

لو كان القرآن نتاج البيئة التي ظهر فيها أول مرة (مكة والمدينة) لبدأ بالتعاطي مع القضايا والأحداث المنتشرة بين الناس كالفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، والضعف السياسي والعسكري والاقتصادي لقريش (أقارب النبي (ﷺ)) ومن حولها من القبائل مقارنة بالفرس والروم والممالك التابعة لهم في أطراف شبه الجزيرة العربية (اليمن، والعراق، والشام)، والفقر والخوف وقطيعة الرحم، والقتال الداخلي بين القبائل[3]، وكذلك انتشار البغي والفجور[4]. ولكنه بدأ من قضايا جديدة لم يكن لهم بها عهد من قبل، أو لم تكن هي القضايا المتداولة بين الناس. بدأ من القضايا التي تعمل في عمق الإنسان وإن لم يستطع التعبير عنها. بدأ من تلك القضايا التي تعطي تصورًا صحيحًا عن الحياة التي

(١) سورة فاطر: الآيات ٢٥ -٢٦.

(٢) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**"، للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج٢٠، ص٤٦٠.

(٣) ينظر: "**أيام العرب في الجاهلية**" لمحمد أحمد جاد المولى وآخرون، (القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م).

(٤) ينظر: "**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**"، لجواد علي، مرجع سابق، ج٨، ص٢٥٦.

يعيشها الإنسان، وعن الماضي (آبائه وأجداده)، والمستقبل (الموت وما بعده)، وما حوله من مخلوقات في الأرض والسماء، وخالق هذا الكون بكل ما فيه (ﷻ) و(ﷻ). وحين تناول القضايا التي يتحدث فيها المتدينون، كالملائكة، والجن، وعيسى ابن مريم، وأنبياء العهد القديم (عليهم السلام)، وعبادة الأصنام، تناولها بخطابٍ تصحيحي. فلم يكن، هذا الخطاب المتعلق بشعائر ما قبل الإسلام في الوثنية واليهودية والنصرانية، اقتباسًا من المنتشر في بيئة المتدينين من النصارى واليهود والوثنيين، ولم يكن توفيقيًا يأخذ من هنا وهناك. وإنما جاء بخطابٍ تصحيحي لم يتحدث به أحد من الذين عاصروا التنزيل حتى يقال أخذ منهم، **وإليك تفصيل، بما يناسب المقام، عن القضايا التي عني بها الوحي لبيان أن الوحي لم يقتبس من السائد بل طرح قضايا جديدة وصحح القديم بخطابٍ جديد لم يكن معروفًا قبل بعثة رسول الله محمدٍ بن عبد الله (ﷺ).**

كانت القضية الأولى التي عُني بها الوحي هي قضية التوحيد. عبادة الله وحده لا شريك له، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]، ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

وبعد دعوتهم إلى توحيد الله، بدأ يعرفهم بالله العلي الكبير الذي يأمرهم أن يعبدوه وحده لا شريك له. يعرفهم بما له من أسماءٍ حسنى وصفاتٍ عليا،

(١) سورة النحل: آية ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٢٥.

استحق- بموجب هذه الأسماء والصفات- العبادة وحده لا شريك له، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1]، والآية الكريمة جملتان: جملة خبرية ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، وجملة تعليلية ﴿ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾، فكأنه سأل سائل لماذا لا يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له؟ فجاءت الجملة الثانية تعليلًا لذلك، ومثلها آية الكرسي: الجملة الأولى تقريرية ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، وما بعدها تعليل: ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[2].

وخاطبهم بأنهم ما جاءوا في الحياة إلا لعبادة الله، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[3]. فكان العلم بالله وما له من أسماء حسنى وصفاتٍ عليا هي القضية الأساس والأبرز في الوحي كتابًا وسنة. وليس لأحد أن يوافق "نصر أبو زيد" في دعوى أن "التركيز على مصدر النص وقائله فقط إهدار لطبيعة النص ذاته، وإهدار لوظيفته في الواقع"[4]!!

(١) سورة البقرة: آية ١٦٣.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٣) الذاريات آية: ٥٦

(٤) ينظر: "**مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن**" لنصر حامد أبو زيد، مرجع سابق، ص ٥٧.

وحدثهم عن خلق الإنسان.. كيف بدأ أول مرة وكيف يحدث في كل مرة. فالإنسان الأول (أدم (عليه السلام)) خلق من تراب، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]، وفي الحديث" النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ"[2]، ثم تحوّل التراب إلى طين ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ ﴾[3]، ثم تحول الطين إلى حمأ مسنون، ثم تحول الحمأ المسنون إلى صلصال، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[4]، ثم التسوية، ثم النفخ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[5]، وهذا الترتيب ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره، يقول: والأقرب أنه تعالى خلقه أولاً من تراب، ثم من طين، ثم من حمأ مسنون، ثم من صلصال كالفخار"[6]. وحدثهم عن ما غاب عنهم من مراحل خلق الإنسان في رحم أمه، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ ﴾[7].

---

(١) سورة الروم: آية ٢٠.

(٢) ينظر: "**شعب الإيمان**" للإمام أحمد بن الحسين البيهقي، (الرياض، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣)، ج٧، ص١٢٥.

(٣) سورة الصافات: من الآية ١١.

(٤) سورة الحجر: آية ٢٦.

(٥) سورة الحجر: من الآية ٢٩.

(٦) ينظر: "**مفاتيح الغيب**" للإمام محمد بن عمر بن الحسن الرازي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ)، ج١٩، ص١٤٢.

(٧) سورة الحج: آية ٥.

وصحح لهم عقائدهم في الأصنام والأوثان والكواكب التي يعبدونها من دون الله بدعوى أنها تقربهم إلى الله[1]، ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾[2]، ويقول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[3].

وفي القرآن الكريم تصحيح لما اعتقد العرب في الملائكة والجنّ لا موافقة لهم، فالملائكة ليست إناثًا، وليست بنات الله كما يزعمون، يقول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[4]. وليسوا، ولا غيرهم، شركاء لله، ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[5]. وبالتالي

(١) للوقوف على التفاصيل المتعلقة بظهور الشرك ومظاهره في الجزيرة العربية ينظر: "**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**"، لجواد علي، مرجع سابق، ج١١، ص٤٨ إلى ج١٢ص٦٠. وينظر: "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار" لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي، (بيروت، دار الأندلس، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص١١٧-١٢٩.

(٢) سورة الزمر: آية ٣.

(٣) سورة الأعراف: ١٩١ – ١٩٤.

(٤) سورة الزخرف: آية ١٩. ومثله: سورة الإسراء: آية ٤٠، وسورة الزخرف: آية ١٩.

(٥) سورة الأنعام: آية ١٠٠

فليس لأحد أن يعبدهم من دون الله: ﴿ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1]. فهم من مخلوقات الله، (ﷻ) و (ﷻ)، ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾[2]. وأنهم مكلفون ومحاسبون مثلهم، ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[3] ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ﴾[4].

وحدّث المؤمنين بالله وما أنزل على رسوله عن عداوة الشيطان للإنسان: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[5].

فكانت معرفة تأسيسية ومعرفة تصحيحة، وكله جديد مما لم يكن معروفًا لمن خوطبوا بالوحي في مكة والمدينة.

ولم يقتصر الأمر على تعليم الناس العقائد بل بدأ يعلمهم ما يصلح دنياهم ويلقون ثوابه في آخرتهم، فأمرهم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا، وأحلَّ لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث، ونظم شئون حياتهم على منهاجٍ لم يكن لهم به سابق معرفة من قبل، يقول الله

(١) سورة سبأ: الآيات ٤٠ – ٤١.
(٢) سورة الرحمن: آية ١٥.
(٣) سورة الأعراف: من الآية ٣٨.
(٤) سورة الأعراف: آية ٣٨.
(٥) سورة فاطر: آية ٦.

تعالى:﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[1].

وعلّمهم أنهم لم يخلقوا عبثًا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[2]، وأن الله استخلفهم في الأرض وطلب منهم عمارتها بما شرعه لهم على لسان رسوله (ﷺ)، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[3]، وأن أعمالهم تحصى عليهم ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[4]، وأن الله رقيب عليهم ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾[5]، ويقول الله تعالى:﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾[6]. وأنهم مبعوثون من بعد الموت، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾[7]، وبعد البعث حساب،

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧.
(٢) سورة المؤمنون: ١١٥.
(٣) هود: ٦١.
(٤) سورة ق: آية ١٨.
(٥) سورة ق: آية ١٦.
(٦) سورة الحديد: آية ٤.
(٧) سورة الواقعة: الآيات ٤٩ – ٥٠.

يقول الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1]، وبعد الحساب جنة أو نار، يقول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

وأنه، (ﷻ) و(ﷻ)، أرسل إليهم رسولًا ليطيعوه، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[3]. وأن الله (ﷻ) هو الذي حدد من يتلقى رسالته والمكان الذي تبدأ منه الدعوة ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[4].

ويقص عليهم أنباء السابقين: كيف نجّى الله من أطاع الرسل؟ وكيف أهلك الله من عصوا رسل ربهم؟ وفي الإنباء عن السابقين بحديث جديد لم يعرفوه من قبل أمارة على أن محمدًا رسول ربهم. أمارة على أنه يتلقى القرآن من لدن حكيم خبير، يقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[5]. فلم يكن له (ﷺ)، ولا لهم، علم بما سبق، على عكس ما يدعيه هشام جعيط من أن النبي (ﷺ) تمتع "بسعة علم ومقدرة فذة في معرفة التراث الديني واللغات العبرية

(١) سورة: الأنبياء: آية ٤٧.

(٢) الروم: ١٥ – ١٦.

(٣) سورة النساء: من الآية ٦٤.ومثله: سورة النور: آية ٥٤.

(٤) سورة الحج: آية ٧٥.

(٥) سورة هود: آية ٤٩. ومثله: سورة آل عمران: آية ٤٤.وسورة يوسف: آية ١٠٢.

والسريانية واليونانية"[١] فهذا قول جعيط يتحدث به من عند نفسه، وإن ما نجده في كتاب ربنا وما نعلمه من سيرة نبينا عكس ذلك تمامًا كما هو صريح الآيات. وبين لهم حال الأمم من قبلهم، كيف نجّى الله الذين آمنوا وأهلك الظالمين، يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾[٢]، ويقول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾[٣]. فقصصُ القرآنِ هو أنباء السابقين، وليس أساطير (خرافات) الأولين. ليس قصصًا من وحي الخيال من أجل العظة كما زعم بعضهم[٤]، يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾[٥]، ويقول الله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[٦]، وأنباء الرسل أخبارهم وأحوالهم في الصبر على أذى

(١) ينظر: "**في السيرة النبوية١: الوحي والقرآن والنبوة**"، لهشام جعيط، مرجع سابق، ص٤٦.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٦٥، ومثله سورة الكهف: آية ٥٩.

(٤) ظهر هذا الادعاء في أطروحة للدكتوراة تقدم بها "محمد أحمد خلف الله" تحت إشراف الدكتور "أمين الخولي" في كلية الآداب جامعة القاهرة، واعترض عليها الأزهر ومنع مناقشتها، ينظر: "**أمين الخولي**"، لحسين نصار، (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦م)، ص٨١. ثم ظهر الادعاء ثانية في كتابات ومحاضرات نصر حامد أبو زيد حال تحدث عن "الخطاب القرآني".

(٥) سورة هود: آية ١٠٠.

(٦) سورة هود: آية ١٢٠ .

قومهم[١]، والتعبير بكلمة "أنباء" تدل على أن المذكور هو ما كان واضحًا وبارزًا[٢] من أخبار السابقين.

ومنذ البداية أعلن الرسول (ﷺ) صلته بمن قبله من الأنبياء، وتتمثل هذه الصلة في وحدة المصدر ووحدة الهدف؛ فالكل مرسل من الله لعبادة الله وتعبيد الناس لله وحده لا شريك له، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾[٣]، ويبشر من آمن وينذر من كفر: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ ﴾[٤].

وفي القرآن الكريم تصحيح لما حدث من تحريف في رسالة موسى (اليهودية) وعيسى (النصرانية)، (عليهما السلام). بمعنى أن الوحي جاء مصححًا لانحرافات اليهود والنصارى ولم يأت مقتبسًا، والذين يدّعون الاقتباس يتكئون على أن في القرآن الكريم ذكر لعدد من أنبياء العهد القديم (أنبياء بني إسرائيل)، وكل من قرأ قصص الأنبياء في القرآن الكريم ثم في "العهد القديم" يعلم بيقين أن لا اقتباس. بلا لا تشابه. كما أن بعض الرسل "كإسماعيل وهود وصالح وشعيب"[٥] لم يذكروا في "العهد==

(١) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**"، للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج١٥، ص٥٤٠.

(٢) ينظر: "**لسان العرب**" لمحمد بن مكرم بن منظور، (بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ)، ج١، ص١٦٣.

(٣) الأنبياء: ٢٥

(٤) سورة النساء: آية ١٦٥.

(٥) ربما لأنهم عرب وليسوا من أنبياء بني إسرائيل.

== القديم"[1]، وكذلك الشعائر كالصلاة والصيام والحج فهي موجودة من حيث الأصل عند الجميع ولكنها مختلفة في تفاصيلها. فهو تصحيح إذًا وليس اقتباسًا.يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ ﴾[2].

والمقصود هو بيان أن التأمل في بداية الوحي وقضايا القرآن من شأنه أن يبين لنا أن الوحي لم يكن من جنس ما عرفه العرب في مكة والمدينة، أو في الجاهلية عمومًا، كما زعم نصر أبو زيد[3] وتوفيق فهد[4]، فلم يكن النبي شاعرًا ولا كاهنًا، لا في حاله (ﷺ) ولا فيما تحدث به، ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ ﴾[5]، ولم يكن الوحي مجرد إلهام داخلي (رسالة داخل النفس، أو أمر بدون وعي من المتلقي)[6]. ولم يَعْلَمْ عن الله

---

(١) ينظر: "الرد على شبهة أن قصص القرآن الكريم مأخوذة من العهد القديم" لإسماعيل علي محمد، موقع الألوكة، أخذ بتاريخ ٢٠٢٢/١/٤. من الرابط: https://cutt.us/eEkAN

(٢) سورة المائدة: آية ١٥. ومثله: آل عمران: ٧١، ومثله: سورة المائدة: آية ١٩.

(٣) ينظر: "**مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن**" لنصر حامد أبو زيد، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤)، ص٣٤.

(٤) ينظر: "**الكهانة العربية قبل الإسلام: الكاهن، الكاهنة، النبي، الشاعر، الحازي، الساحر، الرائي، العرّاف، الرّب، ذو إله، الحُمس**" لتوفيق فهد، ترجمة: حسن عودة، رندة بعث، (بيروت، قَدْمُس للنشر والتوزيع،٢٠٠٩)، ص١٧-١٩، ص٢١-٢٢.

(٥) سورة الحاقة: الآيات ٤١ – ٤٢.

(٦) ينظر: "**في السيرة النبوية١: الوحي والقرآن والنبوة**"، لهشام جعيط، مرجع سابق، ص٥٢.

من تلقاء نفسه بدون واسطة[1]، بمعنى أن التغيير الذي حدث في أم القرى وما حولها إنما جاء بالوحي لا أن المجتمع المكي والمدني هو الذي صاغ الوحي.

(١) بعد أن استعرض أقوال الفلاسفة في نشأة العقيدة عَقَدَ عبّاس العقّاد فصلاً سمّاه (الوعي الكوني)، زعم فيه أن بعض البشر يرتقي روحيًا حتى يعقل عن الله بلا واسطة. ينظر: "**الله**"، لعباس محمود العقاد، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣)، ص١٥-٥٦، وص١٩١-٢٠٨. وهذا المعنى ورد ذكره عند ابن خلدون في "المقدمة السادسة في أصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا"، وعبارة ابن خلدون مترددة بين المعنى وعكسه، وذلك أنه أطال البيان في أن النفس تصفو حتى ترتقي للملأ الأعلى وتعلم، ثم ذكر في نهاية حديثه، بكلامٍ مجمل، أن الوحي اصطفاء ورسالة من الله، ينظر: "**العِبَر و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**" لعبد الرحمن بن خلدون، (بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م). وظهر صدى كلام ابن خلدون عند نصر حامد أبو زيد فاستدل بكلامه عن أن الوحي مجهود ذاتي بالفطرة أو الرياضة. ينظر: "**مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن**" لنصر حامد أبو زيد، مرجع سابق، ص ٣٧.

المبحث الثالث

عدم ارتباط عوامل التغيير بالزمان والمكان

يكاد يجمع الرافضون لما بعث الله به محمدًا (ﷺ) من المستشرقين والمتأثرين بخطابهم(١)، على الزعم بأن الرسالة منتج أرضي وليست وحيًا من الله، وأنها تتطور حسب الزمان والمكان، بمعنى أن لكل زمانٍ ومكانٍ ما يناسبه(٢). وهؤلاء ينطلقون من المقولة الأساسية لعلم الاجتماع الحديث والتي هي "حتمية الواقع". كأن الوحي أخذ مادته (محتواه) من مفردات الأحداث اليومية في أم القرى ومن حولها. وكأن هذا الذكر الحكيم والسنة النبوية صياغة لما حدث وقت النزول، أو: رصدًا (تسجيلًا) للأحداث(٣)!!

ويظهر هذا المسلك في صورٍ متعددة، **منها:** الزعم بأن لكل فترة إسلامًا خاصًا بها، فإسلام الرسول(ﷺ) والصحابة، رضوان الله عليهم؛ وإسلام الراشدين؛ وإسلام بني أمية... وهكذا(٤)؛ **ومنها:** الزعم بأن الإسلام تعرض

---

(١) في بحثٍ سابق رصدت مداخلهم الرئيسية. أُبيِّنها وأرد عليها. ينظر: "الوحي في خطاب المتأثرين بأفكار المستشرقين والمبشرين"، لإيناس جلال القصاص، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات كفر الشيخ، عدد أكتوبر ٢٠٢٢.

(٢) للوقوف على حالة التأثر بالمستشرقين أو النقل عنهم، ينظر:"**التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات**" لإبراهيم عمر السكران، (الرياض، دار الحضارة للنشر والتوزيع،١٤٣٥/ ٢٠١٤).

(٣) هذه هي الفكرة المحورية عند نصر حامد أبو زيد في كتاباته عن القرآن الكريم ويسميه "النص"، ينظر: "**مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن**" لنصر حامد أبو زيد، مرجع سابق. ص، ٣١، وص٣٤-٣٥.

(٤) للاطلاع على أطروحات تفصيلية تتبنى هذا التوجه ينظر: "**البداهات الزائفة في الفكر الإسلامي**" لعبد المجيد الشرفي، (بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١٤م). وينظر:=

لتأويلات متباينة تبعًا للزمان والمكان وتبعًا لحال من يقرأ الشريعة، فإسلام خاص بأهل السنة، وإسلام خاص بالمعتزلة، وإسلام خاص بأهل التصوف!![1]؛ **ومنها:** الزعم بأن القرآن الكريم (النص كما يسمونه) فُهِم في كل زمانٍ ومكان بأدوات أهل الزمان والمكان الخاصة بهم، وأن وظيفة الدين في الحياة، حسب زعمهم، وظيفة روحانية.. يقولون: يضفي معنى على الحياة ويبرر المؤسسات المجتمعية القائمة[2]!

ونرد على هؤلاء بعددٍ من الأمور نبين **من خلالها أن عوامل التغيير غير مرتبطة بالزمان والمكان، بدليل أن التغيير لم يرتبط بمكة والمدينة وحدهما وإنما حدث في أماكن أخرى تختلف عنهم من حيث طبيعة البيئة، وامتد التغيير لأزمنة مديدة بمعنى أن التغيير، كما لم يرتبط بالمكان، لم يرتبط أيضًا بالزمان، فالقرآن الكريم يصلح الله به المكان والزمان.** من أهم هذه الأمور ما ورد في

="**في السيرة النبوية ١: الوحي والقرآن والنبوة**"، لهشام جعيط، (بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٠م).

(١) للوقوف على كتابات برز فيها هذا الزعم بشكل أكاديمي ينظر: "**النص، السلطة، الحقيقة**"، لنصر حامد أبو زيد، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥م)، وينظر: "**مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن**" لنصر حامد أبو زيد، مرجع سابق؛ وينظر: "**إشكاليات القراءة وآليات التأويل**" لنصر حامد أبو زيد، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م)؛ وينظر: "**فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي**"، لنصر حامد أبو زيد، (بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٣)، وللوقوف على مناقشة نقدية لما قدمه "نصر أبو زيد" ينظر: "**القراءة التأويلية لدى نصر حامد أبو زيد**" لخالد القرني، (الرياض، وجوه للنشر والتوزيع، ١٤٣٥هـ).

(٢) ينظر: "المفكر التونسي عبد المجيد الشرفي"، برنامج "فسحة فكر" الجزء الأول، أخذ من الرابط: فسحة فكر | المفكر التونسي عبد المجيد الشرفي YouTube .

المبحث الأول من التغير الحاصل لشخص الرسول (ﷺ) قبل البعثة وبعدها وهو في مكة لم يفارق أهلها، وأمورٍ أخرى نبينها في هذا المبحث، وذلك على النحو التالي:

أولًا: بيان أننا نمتلك نموذجًا معياريًا نرجع إليه ونقيس صواب إيماننا عليه، وهو الكتاب والسنة النبوية (قول وفعل النبي (ﷺ) وما أقر عليه أصحابه رضوان الله عليهم). بمعنى أن النص ليس مفتوحًا لتأويلات لا نهائية كما يدعي أرباب المناهج الحداثية(١). يقول الله تعالى ذكره: ﴿ **فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ** ﴾(٢)، و"معناه فإن آمنوا بجميع ما آمنتم به أي أتوا بإيمان

(١) والمتحدثون بهذه الأقوال يطبقون، بقصدٍ أو بدون قصدٍ، مناهج الحداثيين في فهم الوحي، تحديدًا الانثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان طبيعيًا واجتماعيًا وحضاريًا) والهرمنيوطيقا (تأويل النص حسب الزمان والمكان الذي يقرأ فيه) والفينومينولوجيا (الوعي بالظواهر الاجتماعية وطريقة إدراك الشخص لها وكيفية حضور الظواهر في خبرته). وهذه المناهج تؤدي إلى إلغاء المعيارية (وجود نموذج [معيار] يقاس عليه) في فهم الوحي. ينظر: "الأنثروبولوجيا الاسلاميّة مقاربة في الاستشراق الجديد" لعامر عبد زيد الوائلي، أخذ بتاريخ ٢٠٢٢/١٢/٦ من الرابط: https://cutt.us/hpgOh . وينظر: "**فهم الفهم: مدخل إلى الهرمنيوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر**"، لعادل مصطفى، (المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧). وينظر: "**أمين الخولي والأبعاد الفلسفية**" ليمنى طريف الخولي، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م)، ص٧٠-٧٣. وللوقوف على عامة النظريات والأفكار المتعلقة بتأويل النص ينظر الأوراق البحثية المقدمة لمؤتمر "التأويلات وعلوم النص" المنعقد من ١٧-١٨ أبريل ٢٠١٩م، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- تطوان- دولة المغرب، أخذ من الرابط: https://cutt.us/ewMJM

(٢) سورة البقرة: آية ١٣٧.

كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم،"[١]، "والخطاب لمحمدٍ (ﷺ) وأمته"[٢]. ويقول الله تعالى ذكره: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[٣]، والمقصود بمن اتبعوهم بإحسان "من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة"[٤].

ثانيًا: من الوحي (كتابًا وسنة) انبثقت علوم خاصة بالشريعة الإسلامية. كالتفسير، والحديث، والفقه، واللغة العربية. وكل علمٍ له أصول وقواعد يُضبط بها ويسير عليها من عُني بهذا العلم. وتم ضبط هذه العلوم بأصولها وقواعدها كتابةً ومدارسةً شفهية. فتراثنا مدون (مكتوب) وليس تراثًا شفويًا فقط. بما في ذلك القرآن الكريم: قرآن ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾[٥]، وكتاب ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [٦]، ولم تحرَّم أو تذم الكتابة كما ادعى عبد المجيد الشرفي[٧].

---

(١) ينظر" **معالم التنزيل**" للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (بيروت، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج١، ص١٥٦.

(٢) ينظر: "**الجامع لأحكام القرآن**" للإمام محمد بن أحمد القرطبي، (القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ج٢، ص١٤٢.

(٣) سورة التوبة: آية ١٠٠.

(٤) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج٢٣، ص٣٧٣.

(٥) سورة البروج: آية ٢١.

(٦) سورة البقرة: آية ٢.

(٧) ينظر: "المفكر التونسي عبد المجيد الشرفي" برنامج فسحة فكر، مرجع سابق.

وهذا الأمر مضطرد، بمعنى أن كل نموذج معرفي (منظومة عقدية) له منهجيته الخاصة في فهم الظواهر الاجتماعية المتعلقة بالتدين وغيره(١).

المنظومة العلمانية المعاصرة أفرزت أدوات خاصة بها في البحث العلمي، ولأن العلمانية متطورة ومتغيرة بشكلٍ دائم حسب أهواء أهل كل زمان ومكان ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ ﴾، يظن هؤلاء أن الإسلام كذلك وأن كل جيل من علماء الأمة امتلك أدوات بحثية خاصة به، وبالتالي درس القرآن والسنة النبوية بأدوات زمانه، وحين يواجهون بوحدة المنهج من حيث العموم يقولون: جمود. وهي حالة من السيولة عندهم وليست حالة من الجمود عندنا(٢).

---

(١) من النماذج المعرفية تخرج المنظورات، ومن المنظورات تتكون المفاهيم، ثم المقولات التفسيرية، ويتجمع عدد من المقولات المتناسقة لتكوين نظرية توصف وتفسر الظواهر الاجتماعية. ينظر: "**مناهج البحث في العلوم الإنسانية: بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب**"لمصطفى حلمي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥). وقدمتُ نموذجًا تطبيقيًا لهذه المسألة بالتفصيل في بحثٍ مستقل. ينظر: "عمارة الأرض في القرآن الكريم بين منهجين" لإيناس جلال القصاص، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، العدد السابع، الإصدار الأول، الجزء الأول ١٤٤٤هـ-٢٠٢٢م، ص ١٣٥ - ١٩٦.

(٢) ومن الأمثلة: تبني "عبد المجيد الشرفي" لأقوال المستشرقين التي تزعم أن النص القرآني طبقات، (أي كتب وحرر على مراحل زمنية مختلفة)، وأن مصادره متعددة، وأن مشاركة النبي (ﷺ) في تحريره محدودة!!

وكذلك تطبيق مناهج المستشرقين البحثية، تلك التي استخدموها مع "الكتاب المقدس". أعني "النقد النصي" الذي يعنى بالعمل على المخطوطات. فبحثوا عن "مخطوطات للقرآن الكريم" يقرؤونها قراءة نقدية. وغاب عنهم أن هذه المناهج تصلح مع "الكتاب المقدس" وذلك لأنه لم يظهر إلا مخطوطات، بخلاف القرآن الكريم الذي نقل إلينا بالضبط الشفهي بجوار الضبط=

=الكتابي منذ نزوله على رسول الله (ﷺ). فالنبي (ﷺ) تلقى القرآن من الله سبحانه و(ﷻ)عن طريق ملك الوحي جبريل، (عليه السلام)، وضبط جبريل للرسول (ﷺ) النصّ فقد كان يراجعه كل عام مرةً وراجعه في العام الأخير مرتين والحديث في صحيح البخاري (وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ، فيُدَارِسُهُ القُرْآنَ)، والصحابة، (رضي الله عنهم)، تلقوا القرآن من النبي (ﷺ)، مشافهةً وكتبوه بين يديه، ورتبه لهم، فكان كل لفظٍ مأخوذ عنه (ﷺ) وكل قراءة أخذت عنه (ﷺ)، وكان ترتيب السور وترتيب ما فيها من آيات منه (ﷺ)، وكان الجمع من أبي بكر جمعًا للمحفوظ والمكتوب والمرتب في آياته وسوره بين دفتين (مصحف)، ثم جاء عثمان فضبط اللفظ مع النطق ببعض الإشارات (كالألف الصغيرة بعد الميم في ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾. وما لا يحتمله الرسم فرَّقه في النُسخ التي وزّعها على الأمصار، فكان مجموع نسخ عثمان بن عفان، (رضي الله عنه)، يحتوي على كل القراءات. وبكل قراءة قرأ قوم. بمعنى أن القراءات موجودة من أول يوم نقلًا عن رسول الله (ﷺ) وليست من صنع الصحابة والذين من بعدهم كما يزعم هؤلاء. أما "عبد المجيد الشرفي" وتلاميذه ومن وافقهم. فلكثرة مخالطتهم المستشرقين والثقافة الغربية دخلوا في حالة متوهمة، حيث ظنوا أن القرآن الكريم مضبوط بالكتابة فقط، وأن القراءات حالة من التضارب والاختلاف وظنوا أن القراءات ظهرت لاحقًا بفعل دخول الأعاجم. ففتشوا عن أقدم مخطوطة على اعتبار أن البحث "العلمي" لا يعمل إلا على مخطوطات (وثائق)، فوجدوها في اليمن مهترئةً ناقصةً رقّعها مستشرق أعجمي لا يحسن العربية، فأخذوا نسخته المرقّعة هذه وراحوا يدرسون القرآن منها، ويقولون: حُرر في أزمان متعاقبة، وعبثت به أيدي البشر!!. و ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ سورة التوبة: آية ٣٠. ينظر: "**المصحف وقراءاته**" لعبد المجيد الشرفي، محررًا، (الرباط، مؤمنون بلاحدود، ٢٠١٦م)، ص١٥-٢٣. وللوقوف على تعمدهم الخطأ في كثير من معالجتهم من حيث المنهجية والتطبيق ينظر: "**نقد كتاب المصحف وقراءته**" لمحمد أمين بن مصطفى العوني، (تونس، دار المازري،٢٠٢١). وللوقوف على فساد منهجية المستشرقين وتعمدهم الخطأ حال دراسة القرآن الكريم ينظر: "**المستشرقون والقرآن الكريم في المراجع العربية**"، لعلي بن إبراهيم النملة، (بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م). وللوقوف على نماذج مشابهة فيما يتعلق بالمخطوطات ينظر:=

إن القرآن الكريم واضح بيِّن في نفسه ومبين لغيره. يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾[1]، ومعنى ﴿ بَيِّنَٰتٍ ﴾ بينات بمعنى واضحات[2]، ويقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[3] ومبينات الحق من الباطل[4]، ومن هذا المعنى أن القرآن يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، يقول الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[5]. وفيه بيان وتفصيل لكل شيء، يقول الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[6] "يقول: نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكل ما بالناس إليه الحاجة من

="**تاريخية الفكر العربي الإسلامي**" لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، مركز الإنماء القومي، ١٩٩٦م)، ص٢٩٠، ٢٩١. وينظر: "**الفكر الأصولي واستحالة التأصيل**"، لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، دار الساقي،١٩٩٩م)، ص٤٥. ومن أفضل ما كتب عن جمع القرآن والقراءات العشر والأحرف السبعة ينظر:"**تسهيل الشاطبية: شرح الأصول**"، لعزة عبد الرحيم سليمان (القاهرة، مفكرون للنشر والتوزيع،١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م)، ص٩-٣٣.

(١) سورة الحج: آية ١٦.

(٢) ينظر: "**مدارك التنزيل وحقائق التأويل**" للإمام عبد الله بن أحمد النسفي، (بيروت، دار الكلم الطيب، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ج، ص٤٣٢.

(٣) سورة النور: آية ٤٦.

(٤) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**"، للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج١٧، ص٢٩٦.

(٥) سورة البقرة: آية ٢١٣.

(٦) سورة النحل: آية ٨٩.

معرفة الحلال والحرام، والثواب والعقاب"[١] ففي القرآن الكريم "تبيان كل شيء من أمور الدين بالنص والدلالة، فما من حادثة جليلة ولا دقيقة إلا ولله فيها حكم قد بينه في الكتاب نصا أو دليلا"[٢] ومثله قول الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾[٣].

ثالثًا: من الشواهد على أن البيئة (المجتمع) ليست هي المتحكم في صياغة المنهج ومن ثم الشخصية، حتى يقال أن الوحي نتاج بيئته، وأن محمدًا (ﷺ) وأصحابه، رضوان الله عليهم، نتاج بيئتهم: أن البيت الواحد، وليس البلد الواحد، يوجد فيه الأضداد. فقد كان خير خلق الله (ﷺ) وأبو طالب، وأبو لهب، من بيئة واحدةٍ، بل ومن بيتٍ واحد (بني عبد المطلب بن هاشم). ومن صلب رأس النفاق (ابن سلول) خرج ابنه "عبد الله" مؤمنًا محبًا لله ورسوله[٤]. وفي بيت نبي الله نوح، (عليه السلام)، تربى ولده الذي كان من المغرقين﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن

(١) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**"، للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج١٤، ص٣٣٣.

(٢) ينظر: "**أحكام القرآن**" لأحمد بن علي الجصاص، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ج٣، ص٢٤٦. وقد ذكر الإمام الجصاص في ذات السياق بيانًا لكون السنة وحيًا أيضًا ومرتبطة بالقرآن الكريم (وما آتاكم الرسول فخذوه) وكذلك مرجعية باقي مصادر الاستدلال المنصوص عليها في أصول الفقه للكتاب والسنة.

(٣) سورة الإسراء: من الآية ١٢.

(٤) ينظر: "**أسد الغابة في معرفة الصحابة**" لعلي بن أبي الكرم محمد بن الأثير، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ج٣، ص٢٩٧.

رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[1]، و"هو ابنه، غير أنه خالفه في العمل والنية"[2].

وفي بيت فرعون كانت آسِيةُ بنتُ مُزَاحِمٍ التي صدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾[3] "آمنت بالله ووحدته، وصدقت رسوله موسى، وهي تحت عدو من أعداء الله كافر، فلم يضرها كفر زوجها، إذ كانت مؤمنة بالله، وكان من قضاء الله في خلقه أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن لكل نفس ما كسبت"[4].

وفي بيتَيْ نوح، ولوط (عليهما السلام) كانت امرأتان على غير ما عليه زوجاهما، يقول الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[5]، فمع أن كلّ واحدةٍ منهن كانت

---

(١) سورة هود: الآيات ٤٢ – ٤٣.

(٢) ينظر: "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، دار هاجر للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ج١٢، ص٤٢٩.

(٣) سورة التحريم: آية ١١.

(٤) ينظر: "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج٢٣، ص١١٤.

(٥) سورة التحريم: آية ١٠.

تخالط نبيًا معصومًا مختارًا إلا أنهما لم يتأثرا به، بل " كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به"[١]

الحقيقة أن المجتمع يخضع لإرادة زعمائه والمتنفذين فيه، أولئك الذين يسمهم الله في كتابه بـ ﴿ ٱلْمَلَأُ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ ﴾ ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ أو ما يطلق عليهم حديثًا مسمى "النخبة". فهؤلاء يعمدون إلى التأثير في الناس وتغيير عاداتهم بما يتوافق مع مصالحهم وأهوائهم. بمعنى أن الظواهر الاجتماعية مصنوعة وليست تلقائية. ففي كل قرية (مجتمع) من يحاول التأثير على الناس وتوجيههم لما يتوافق مع عقائده أو مصالحه، وهذا صريح في كتاب الله. ففي القرآن الكريم أن في كل مجتمع (قرية) ملأ (أكابر/ نخبة) يعرفون الحق ويحاولون صرف الناس عنه بما استطاعوا من وسائل، فهم الأفَّاكون الذين يصدون الناس عن دين الله[٢]، وهم الذين يمكرون فيها صدًا عن سبيل الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[٣]، والمعنى: ("ليمكروا فيها"، بغرور من القول أو بباطل من الفعل، بدين الله وأنبيائه)[٤]، وهم الذين يضلون الناس

(١) ينظر: "**مفاتيح الغيب**" للإمام الفخر الرازي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ) ج١٧، ص٣٥١.

(٢) في لسان العرب أن مادة "افك" تدور على الصرف.. الصدد ، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ غافر: ٦٣ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ غافر: ٦٣. و"الأَفَّاك الذي يَأْفِكُ الناس أي يصدهم عن الحق بباطله" ينظر: "**لسان العرب**" لمحمد بن مكرم بن منظور، مرجع سابق، ج١٠، ص ٣٩١.

(٣) سورة الأنعام: آية ١٢٣.

(٤) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري، (القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ج٩، ص٥٣٧.

بالافتراء على الله﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لقمان: ٦ ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[2]، والمعنى: "ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك ودعونا إلى عبادة غيرك وزينوا لنا طاعة الشيطان"[3].

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾[4]، ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[5].

ولذا لا يتصور أن يتحرك المجتمع من الكفر للإيمان بتفاعلاته الذاتية، وإنما بمنظومة من العقائد الجديدة تتدافع مع المنظومة السائدة المتحكمة في المجتمع وتدفعها بعيدًا ثم تحل مكانها. فلكل منظومة سائدة من يحرسها. ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾. يمكرون الليل والنهار ليصدوا الناس عن التغيير القادم بالوحي (المنهج الرباني). ومن هذا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[6]، (يقول تعالى ذكره: إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة

(١) سورة الأنعام: من الآية ١٤٤.

(٢) سورة الأعراف: من الآية ٣٨.

(٣) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**"، للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج١٠، ص١٧٨.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦٧.

(٥) سورة النمل: آية ٤٨.

(٦) سورة الرعد: آية ١١.

فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا، واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره)[١].

رابعًا: من الأدلة الرئيسية التي يحتجون بها وجود أسباب نزول لآيات الذكر الحكيم، وكأن الأحداث كانت تحدث فينزل القرآن الكريم مدوناً لها!! ولم تكن كل الآيات مرتبطة بأحداث جزئية (أسباب نزول)، وأسباب النزول- إن وجدت- فلا تعني بالضرورة التوافق مع ما يحدث وإنما توجيه ما يحدث، كما حدث في قصة الظهار والتي نزل فيها أوائل سورة المجادلة، والقذف والملاعنة والتي نزل فيها أوائل سورة النور، وكما حدث في قبول الفداء من أسرى بدر، وكما حدث في الإجابة على أسئلة من سأل النبي (ﷺ) عن بعض أمور الدين "﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾[٢]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾[٣]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾[٤]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾[٥]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾[٦]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[٧]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾[٨]

(١) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القــرآن**" للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع ســابق، ج١٣، ص٤٧١.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) البقرة: ٢٢٠.

(٤) البقرة: ٢١٥.

(٥) البقرة: ٢٢٢.

(٦) الأنفال: ١.

(٧) الإسراء: ٨٥.

(٨) الكهف: ٨٣.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾[1]، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾[2]، ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾[3]. فالوحي كان مُوجِهًا ولم يكن تسجيلًا للأحداث يحكيها ويقتبس منا كما يزعم هؤلاء.

خامسا: صبغة جديدة:

تغيَّر حال الناس (المجتمع) في مكة والمدينة والجزيرة العربية وبلاد فارس وبلاد الرومان وغيرهم. فمن الشقاق والقتال الداخلي وعبادة الأوثان إلى الإيمان وما أثمره الإيمان بالله وما أنزل على رسوله من طمأنينة وألفة وسلام بين الناس، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[4]، والمعنى: "واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم حين كنتم أعداء: أي بشرككم، بقتل بعضكم بعضا، عصبية في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخوانا بعد إذ كنتم أعداء تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه"[5] فقد كان الخلاف والشقاق والاقتتال الداخلي يمزق الجميع وليس الأوس والخزرج

(١) طه: ١٠٥.

(٢) النساء: ١٧٦.

(٣) النساء: ١٢٧.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(٥) ينظر: "**جامع البيان في تأويل القرآن**" **للإمام محمد بن جرير الطبري**، مرجع سابق، ج٥، ص٦٥٠.

وحدهم[1]، ومثله قول الله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[2].

وظل هذا التغيير لقرون عدة. بمعنى أن التغيير حدث مع اختلاف الزمان (قرون متتالية) والمكان (مكة، المدينة، الجزيرة العربية، بلاد فارس، وبلاد الرومان). فكيف يقال أن لكل زمان ومكان دين يناسبه؟! إن اعتبار تغير الزمان والمكان إنما يكون في التفاصيل (الأحكام الفقهية الجزئية) لا في العقيدة نفسها، ولا في أركان الإسلام والإيمان الواردة في الحديث: "يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ "لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا. وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ. وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ. وَتَصُومُ رَمَضَانَ" قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: يَا رَسُولَ الله! ما الإيمان؟ قال "أَن تؤمن بالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ"[3].

كانت ثمرة هذا الخطاب الجديد تغيرًا جذريًا في طبيعة الفرد ومن ثم المجتمع ككل. كان الوحي روحًا من الله أحيا الله به محمدًا (ﷺ) وصحابته، رضوان الله عليهم، ثم أهل المدينة ومكة ومن حولهم من الأعراب، فالجزيرة العربية فأهل فارس والرومان وغيرهم من البربر والسودان.

---

(١) كانت الحروب منتشرة في جميع أنحاء الجزيرة وعرفت باسم "أيام العرب"، بل وخارج الجزيرة العربية (بين الفرس والروم)، ينظر: "**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**"، لجواد علي، (بيروت، دار الساقي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م). وينظر: "**أيام العرب في الجاهلية**" لمحمد أحمد جاد المولى وآخرون، مرجع سابق.

(٢) سورة الأنفال: آية ٦٣.

(٣) ينظر: "**المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)" للإمام مسلم بن الحجاج**؛ مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله (ﷻ)، ج١، ص٤٠.

هدمت الأصنام، وهدمت البيوت (كاللات في الطائف) غير البيت الحرام، وهدمت النصب وكل مظاهر الشرك والكفر بالله[١]، فلم يبق في المدينة ولا مكة ولا الجزيرة العربية شيءٌ منها[٢].

نظمت العلاقة بين الرجل والمرأة على نسق جديد فتغير مفهوم الزواج، فحرم نكاح الاستبضاع ونكاح الرهط، ونكاح البغايا، وضُبط نكاح الولي، وحرم نكاح الأمهات وما نكح الآباء من النساء، وغير ذلك مما نص عليه القرآن الكريم[٣]. وشرّعت الحدود زواجر وجوابر[٤] فاختفت مظاهر الفسق والمجون التي كانت تملئ مكة وغيرها[٥]. وحرم التفاخر بالأحساب والأنساب. وتغيرت التعاملات المالية فلم تعد على قواعد الربـــا، ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ

(١) للوقوف على تفاصيل ديانات العرب، وهيئة الأصنام وما حولها من "آبار" لجمع النذور ونصب للذبائح والخطباء، وحرمٍ ينظر: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" لجواد علي، مرجع سابق، ج١١، ص١٤-٤٢٣، وج١٢، ص٢-٤٨.

(٢) ورد في السيرة أخبار سرايا الرسول، (ﷺ) لهدم الأصنام وبيوتات العرب، ينظر: "الروض الأنف في شرح السيرة النبوية"، لعبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢)، ج٧، ص٣٧٢.

(٣) وردت أنواع النكاح في حديث أم المؤمنين عائشة (ﷺ) "«أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ... الحديث، ينظر:" **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه**" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، ج٧، ص١٥، كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي. في حديث عائشة أن الزواج كان على أربع، جعل ثلاثة حالات منه من الزنا، واقر واحد فقط،

(٤) ينظر: "**أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع**" لمحمد حسين الذهبي، (القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٦٨م).

(٥) ينظر: "**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**"، لجواد علي، مرجع سابق، ج٨، ص٢٥٦.

ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾[1]. ويزعم خليل عبد الكريم أن الحياة استمرت على تشريعات الجاهلية[2]! وهذا بعيد تمامًا فقد حُرِّم كثير من أمر الجاهلية وما أُقر منه أُحدثت فيه تغيرات جذرية، أهمها أنه أقر بأمر الله لا أنه أعراف يحافظ عليها. وكانت النتيجة فرد جديد أو: صبغة جديدة اصطبغ بها من آمن بالله وما أنزل على رسوله، يقول الله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[3]، حدثت التزكية للفرد فخرج من ظلمات الكفر والفسوق إلى رشد الإيمان والطاعة.

والمقصود هنا هو الاستشهاد بتغير الحال في مكة والمدينة على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع ككل بعد نزول القرآن الكريم لبيان أن هذا التحول الجذري لم يكن إلا بما تلاه محمد (ﷺ) عليهم من الكتاب والحكمة، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[4] فالتزكية حصلت لهم بما سمعوه وتعلمون من رسالة الله لهم على لسان رسوله محمدٍ، (ﷺ). ويؤيد هذا ما جاء عن جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، أمام ملك الحبشة: "أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة،

---

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٧٥.

(٢) ينظر: "**الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية**"، لخليل عبد الكريم، (القاهرة، سينا للنشر، ١٩٩٠). وينظر: "**مجتمع يثرب: العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخليفي**" لخليل عبد الكريم، (القاهرة: سيناء للنشر، ١٩٩٧م).

(٣) البقرة: ١٣٨.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٦٤.

ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه، الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعد عليه أمور الإسلام. فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله (ﷻ)"[1].

ويجمل هنا أن نشير إلى نموذجٍ عكسيٍ، نؤكد من خلاله على أن بداية التغيير من المناهج حين تجد من يؤمن بها ويدعو إليها وأن تأثير المكان والزمان محدود، وإن وجد هذا التأثير ففي التفاصيل. هذا النموذج هو تحول المجتمعات الغربية وكثير من مجتمعات المسلمة عن الفضيلة، وقد رصد هذا التحول ميشيل فوكو في أربعة كتب تحت عنوان "الجنسانية". حدث التحول حين ظهرت نماذج معرفية جديدة، وآمن بها نخبة ذات تخصصات متعددة. وهي هنا النخبة السياسية والاقتصادية التي أقامت الحياة على المنفعة المادية، والنخبة الأدبية التي أكثرت من الحديث عن الجنس فيما تكتب من قصص وروايات حتى جعلته أمرًا شائعًا بين الناس، وكذلك النخبة الأكاديمية التي بررت الشبق الجنسي بمقولات "علمية"، ثم جاء العوام الذين

(١) ينظر: "السيرة النبوية" لعبد الملك بن هشام، (بيروت، دار الجيل، ١٤١١هـ)، ج٢، ص١٧٩.

حولوا أفكار الساسة والأدباء والمفكرين إلى واقع فهجروا الزواج ولجّـوا فـي وحل الرذيلة، وهذا التحول حدث في مجتمعات مختلفة وفي أزمنة مديدة (قرابة قرنين من الزمان الآن)[1].

(١) ينظر: "**تاريخ الجنسانية: إرادة العرفان**"، لميشيل فوكو، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م).، وينظر: "**تاريخ الجنسانية: استعمال المتع**" لميشيل فوكو، ترجمة محمد هشام، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م)، وينظر: "**تاريخ الجنسانية، اعترافات البدن**" لميشيل فوكو، (باريس، غاليمار، ٢٠١٨)، وينظر: "**تاريخ الجنسانية: الانشغال بالذات**" لميشيل فوكو، ترجمة محمد هشام، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م).

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، ومن أحبه واتبع هديه، **وبعد**،،،

مما سبق نستطيع أن نجيب بوضوح على سؤال الدراسة (هل كان القرآن الكريم مؤسسًا لواقع جديد أم كان نتاج الواقع الذي ظهر فيه؟!) بأن الله يصلح حال الناس برسولٍ يصطفيه من خلقه، ويعده على عينه، ويرسله برسالةٍ من عنده. وقد كانت البشرية تنتظر محمدًا (ﷺ) وتبشر به، وتتمناه لإصلاح ما أفسد عصاة البشر. وخاطب الناس بوحي من الله لا بآراء شخصية تعلمها ممن حوله فقد كان الوحي جديدًا في نشأته، وقضاياه. وتحول به من آمن بالله وما أنزل على رسوله من الكفر والفساد إلى الإيمان والرشاد، فتغيرت مكة والمدينة وما حولها في الجزيرة العربية، وبلاد فارس، وأفريقيا، والسودان، والرومان، ولأزمنة مديدة. فلم تكن الدعوة المحمدية وليدة بيئتها ولم تقف على حدود المكان الذي خرجت منه ولا الزمان الذي ظهرت فيه. ونستطيع أن نجمل أهم النتائج التي وصلت إليها الدراسة في نقاط على النحو التالي:

١) كانت البشرية تنتظر التغيير برسول يرسله الله، والقول بأن صلاح حال الناس بمناهج أرضية هو قول المعاصرين بعد أن ظهر وانتشر بين الناس الإلحادُ الذي لا يؤمن بالله خالقًا ومدبرًا وهاديًا.

٢) الذين يزعمون أن الوحي نتاج بيئته إنما يتحدثون من عند أنفسهم، ولا يقدمون قراءة للوحي كتابًا وسنة، ويصرحون بهذا[١]!

---

(١) ينظر: "**فترة التكوين في حياة الصادق الأمين**" لخليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص١٢١، و ص ٢٣٥، حيث يعترف بأن ما يردده لم يرد في المصادر الإسلامية، وإنما استنتجه هو من تلقاء نفسه، وقوله يشابه قول غيره من المستشرقين!!

٣) بدأت البعثة المحمدية في غار حراء بشكل مفاجئ، فلم يكن النبي (ﷺ) يعلم ما الكتاب ولا إيمان، ولا كان يرجو أن يلقى إليه الكتاب، وتحدث لأهل مكة والمدينة بجديد لم يعهدوه من قبل.

٤) غيّر الله بالبعثة المحمدية مكة والمدينة فأصبح الناس موحدون، يصلون ويصومون ويؤدون زكاة أموالهم، ويتراحمون فيما بينهم؛ واختفت الأصنام وسدنتها، وانتهت أعراف الجاهلية كلها، فأصبح الناس سواسية يتفاضلون بالتقوى، وأصلح الله بالهم، وألف بين قلوبهم، فعاشوا عيشة راضية إلى أن بدّلوا.

٥) لم يرتبط التغيير بمكة والمدينة، ولا بما شابههم من المدن، وإنما تغيرت أماكن مختلفة ولأزمنة مديدة، وهذا يعني أن التغيير، وإن كان قد بدأ في مكة والمدينة، إلا أنه لم يرتبط أبدًا بمكة والمدينة وحدهما، ولا بالفترة التي بعث فيها محمد (ﷺ) وحدها، فالقرآن الكريم يصلح الله به الزمان والمكان متى وجد من يمتثله خُلقًا ويدعو الناس إلى ما فيه.

وتوصي الدراسة بالاتجاه إلى مزيدٍ من التعاطي البحثي مع:

١) التغيير الذي أحدثه القرآن الكريم على مستوى الأشخاص، وذلك بتناول التحولات والتغيرات التي حدثت في الشخصيات الكبرى، كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وزيد بن ثابت.

٢) التغيرات التي حدثت في المجتمع بعد نزول القرآن الكريم، مثل: اختفاء مظاهر الخنا والفجور، وظهور التكافل الاجتماعي، وظهور العلوم المختلفة وتطورها.

١) إبراز عوامل التغيير وكيف أنها لا ترتبط بشكل مطلق بالزمان والمكان.

المصادر والمراجع

الكتب:

١. **إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج**، معاني القرآن وإعرابه، (بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٢. **إبراهيم عمر السكران**، التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات، (الرياض، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م).

٣. **إبراهيم عوض**، أفكار مارقة، (القاهرة، مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١١).

٤. **إسماعيل بن كثير**، تفسير القرآن العظيم، (القاهرة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٥٠هـ/ ١٩٩٩م).

٥. **أحمد إبراهيم الشريف**، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (ﷺ)، (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٦. **أحمد بن الحسين البيهقي**، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥هـ).

٧. **أحمد بن الحسين البيهقي**، شعب الإيمان، (الرياض، مكتبة الراشدين، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

٨. **أحمد بن عبد الله الأصبهاني**، دلائل النبوة، (بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٩. **أحمد بن علي الجصاص**، أحكام القرآن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

١٠. **أحمد بن علي بن حجر العسقلاني**، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ).

١١. **أحمد بن محمد بن حنبل**، مسند الإمام أحمد بن حنبل، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

١٢. **أرنولد توينبي**، بحث في التاريخ، ترجمة طه باقر، (بيروت، الورّاق، ٢٠١٤م).

١٣. **الحسين بن مسعود البغوي**، معالم التنزيل، (بيروت، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
١٤. **الحسين بن مسعود البغوي**، معالم التنزيل في تفسير القرآن، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ).
١٥. **توفيق فهد**، الكهانة العربية قبل الإسلام: الكاهن، الكاهنة، النبي، الشاعر، الحازي، الساحر، الرائي، العرّاف، الرّب، ذو إله، الحُمس، ترجمة: حسن عودة، رندة بعث، (بيروت، قَدْمُس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩).
١٦. **حسين نصار**، أمين الخولي، (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦م).
١٧. **جمال الدين ابن منظور**، لسان العرب، (بيروت، دار الصادر، ١٤١٤هـ).
١٨. **جواد علي**، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (العراق، جامعة بغداد، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م).
١٩. **جواد علي**، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت، دار الساقي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٢٠. **جوزيف قزّي**، قس ونبي: بحث في نشأة الإسلام، (لبنان، دار لأجل المعرفة، ٢٠٠٥م).
٢١. **جوزيف قزّي**، نبي الرحمة: بحث في مجتمع مكة، (لبنان، دار من أجل المعرفة، ١٩٩٠م).
٢٢. **خالد القرني**، القراءة التأويلية لدى نصر حامد أبو زيد، (الرياض، وجوه للنشر والتوزيع، ١٤٣٥هـ).
٢٣. **خليل عبد الكريم**، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، (القاهرة، سينا للنشر، ١٩٩٠م).
٢٤. **خليل عبد الكريم**، فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، (القاهرة، دار مصر المحروسة، ٢٠٠٤م).
٢٥. **خليل عبد الكريم**، مجتمع يثرب: العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخليفي، (القاهرة: سيناء للنشر، ١٩٩٧م).
٢٦. **سيد محمود القمني**، الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية: دور الحزب

الهاشمي والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية- مدخل إلى قراءة الواقع الاجتماعي لعرب الجاهلية وإفرازاته الأيديولوجية، (المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧م).

٢٧. **عادل مصطفى**، فهم الفهم: مدخل إلى الهرمنيوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، (المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧م).

٢٨. **عباس محمود العقاد**، الله، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م).

٢٩. **عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي**، الخصائص الكبرى، (بيروت، دار الكتب العلمية،١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٣٠. **عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي**، لباب النقول في أسباب النزول، (بيروت، دار إحياء العلوم، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م).

٣١. **عبد الرحمن بن خلدون**، العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٣٢. **عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي**، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ).

٣٣. **عبد الله بن أحمد النسفي**، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٥م).

٣٤. **عبد الله بن أحمد النسفي**، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (بيروت، دار الكلم الطيب، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

٣٥. **عبد المجيد الشرفي**، البداهات الزائفة في الفكر الإسلامي، (بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١٤م).

٣٦. **عبد المجيد الشرفي محررًا**، المصحف وقراءاته، (الرباط، مؤمنون بلاحدود، ٢٠١٦م).

٣٧. **عبد الملك بن هشام**، السيرة النبوية لابن هشام، (بيروت، دار الجيل، ١٤١١هـ).

٣٨. **عبد الملك بن هشام**، السيرة النبوية لابن هشام، (القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

٣٩. **عزة عبد الرحيم محمد سليمان**، تسهيل الشاطبية: شرح الأصول، (القاهرة،

مفكرون للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م).

٤٠. **علي بن إبراهيم النملة**، المستشرقون والقرآن الكريم في المراجع العربية، (بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م).

٤١. **علي بن أبي الكرم محمد بن الأثير**، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

٤٢. علي بن أحمد الواحدي، أسباب نزول القرآن، (الدمام، دار الإصلاح، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٤٣. **علي بن محمد الجزري (ابن الأثير)**، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ه/١٩٩٤م).

٤٤. **عماد السيد الشربيني**، رد شبهات حول عصمة النبي (ﷺ) في ضوء السنة النبوية الشريفة، (القاهرة، مطابع دار الصحيفة، ٢٠٠٣م).

٤٥. **محمد أحمد جاد المولى وآخرون**، أيام العرب في الجاهلية، (القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م).

٤٦. **محمد أركون**، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، دار الساقي، ١٩٩٩م).

٤٧. **محمد أركون**، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، مركز الإنماء القومي، ١٩٩٦م).

٤٨. **محمد الطاهر بن عاشور**، التحرير والتنوير، (تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م).

٤٩. **محمد أمين بن مصطفى العوني**، نقد كتاب المصحف وقراءته، (تونس، دار المازري،٢٠٢١).

٥٠. **محمد بن أحمد القرطبي**، الجامع لأحكام القرآن، (القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

٥١. **محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي**، سير أعلام النبلاء، (بيروت، الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٥٢. **محمد بن إسماعيل البخاري**، الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه.

٥٣. **محمد بن جرير الطبري**، جامع البيان في تأويل القرآن، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

٥٤. **محمد بن حبان**، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٥٥. **محمد بن عبد الله الأزرقي**، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، (بيروت، دار الأندلس، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٥٦. **محمد بن عبد الله النيسابوري**، المستدرك على الصحيحين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).

٥٧. **محمد بن عبد الله بن يحي بن سيد الناس**، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦).

٥٨. **محمد بن مكرم بن منظور**، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ.

٥٩. **محمد بن عمر بن الحسن الرازي (الفخر الرازي)**، مفاتيح الغيب، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

٦٠. **محمد حسين الذهبي**، أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع، (القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٦٨م).

٦١. **محي الدين يحى بن شرف النووي**، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م).

٦٢. **مسلم بن الحجاج القشيري**، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)، (بيروت، دار الجيل، د.ت).

٦٣. **مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي**، تفسير مقاتل بن سليمان، (بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٣هـ).

٦٤. **مصطفى حلمي**، مناهج البحث في العلوم الإنسانية: بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م).
٦٥. **ميشيل فوكو**، تاريخ الجنسانية: إرادة العرفان، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م).
٦٦. **ميشيل فوكو**، تاريخ الجنسانية: استعمال المتع، ترجمة محمد هشام، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م).
٦٧. **ميشيل فوكو**، تاريخ الجنسانية، اعترافات البدن، (باريس، غاليمار، ٢٠١٨م).
٦٨. **ميشيل فوكو**، تاريخ الجنسانية: الانشغال بالذات، ترجمة محمد هشام، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م).
٦٩. **نصر حامد أبو زيد**، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م).
٧٠. **نصر حامد أبو زيد**، النص، السلطة، الحقيقة، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥م).
٧١. **نصر حامد أبو زيد**، فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي، (بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٣).
٧٢. **نصر حامد أبو زيد**، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤م).
٧٣. **هشام جعيط**، في السيرة النبوية ١: الوحي والقرآن والنبوة، (بيروت، دار الطليعة،٢٠٠٠م).
٧٤. **وِل وَايريلْ ديورانت**، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، (بيروت، دار الجيل، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
٧٥. **وهبة مصطفى الزحيلي**، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (دمشق، دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
٧٦. **يمنى طريف الخولي**، أمين الخولي والأبعاد الفلسفية، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م).

مجلات علمية:

٧٧. **إيناس جلال القصاص**، الوحي في خطاب المتأثرين بأفكار المستشرقين والمبشرين، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات كفر الشيخ، عدد ديسمبر ٢٠٢٢م.

٧٨. **إيناس جلال القصاص**، عمارة الأرض في القرآن الكريم بين منهجين، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، العدد السابع، الإصدار الأول، الجزء الأول ١٤٤٤هـ-٢٠٢٢م.

مواقع إلكترونية:

٧٩. **أحمد إبراهيم خضر**: "علم الاجتماع: غبش في التصور وتشويش في النظرية"، أخذ من موقع الألوكة بتاريخ ٢٠٢٢/١٢/٢٢: https://cutt.us/FVt9x

٨٠. **إسماعيل علي محمد**، "الرد على شبهة أن قصص القرآن الكريم مأخوذة من العهد القديم"، موقع الألوكة، أخذ بتاريخ ٢٠٢٢/١/٤م. من الرابط: https://cutt.us/eEkAN

٨١. **برنامج "فسحة فكر": "المفكر التونسي عبد المجيد الشرفي"**، الجزء الأول، أخذ من الرابط: فسحة فكر | المفكر التونسي عبد المجيد الشرفي - YouTube

٨٢. **سامي الذيب**، "قراءة في كتاب تبرئة الله للأب جوزف قزي أبو موسى الحريري جزء١" أخذ بتاريخ ٢٠٢٢/٧/٢٩، من الرابط: https://٢u.pw/hJk٤٤

٨٣. **عامر عبد زيد الوائلي**، الأنثروبولوجيا الاسلاميّة مقاربة في الاستشراق الجديد"، أخذ بتاريخ ٢٠٢٢/١٢/٦ من الرابط: https://cutt.us/hpgOh .

٨٤. مؤتمر "التأويلات وعلوم النص" المنعقد من ١٧-١٨ أبريل ٢٠١٩م، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- تطوان- دولة المغرب، أخذ من الرابط: https://cutt.us/ewMJM

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص باللغة العربية	٨٧٩
الملخص باللغة الإنجليزية	٨٨٠
المقدمة	٨٨١
المبحث الأول: حال النبي (ﷺ) قبل البعثة وبعدها في القرآن الكريم	٨٨٥
المبحث الثاني: بداية الوحي، وقضاياه	٩٠٣
المبحث الثالث: عدم ارتباط عوامل التغيير بالزمان والمكان	٩٢١
الخاتمة	٩٣٩
المصادر والمراجع	٩٤١
فهرس الموضوعات	٩٤٨